ALTINOLUK

الميزاب الذهبي

بنور الخير

مجلة فصلية - العدد الثامن والعشرون (أيّار - آب ٢٠١٩)

قال الله تعالى:

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت: ٢- ٣)

التضحية

علامة صدق الإيمان

كلمة التحرير

أيها الأخوة القرآء:

إن وصول هذا الدين الجليل إلى أيامنا هذه هو نتيجة للتضحيات الكبيرة التي بذلت، والتخلي عن الراحة والمصالح الفردية كل ذلك في سبيل الله تعالى، وإننا اليوم وجهاً لوجه مع امتحان التضحية في سبيل الله تعالى. لأن الله تعالى يقول في آية أخرى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ...﴾

(البقرة، ٢١٤)

ويقول النبي ﷺ:

«مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره» (الترمذي، الأدب، ٨١)

ولذلك فحتى يكون المطر المبارك حاملاً في طيات قطراته الرحمة، ينبغي علينا اليوم التحلي بالغيرة الدينية والقيام بواجب هذا الدين بكل جد ونشاط، والواجب علينا إظهار التضحية في سبيل الله تعالى بأفكارنا، وقوتنا، ووقتنا، وبكل الإمكانات التي تفضل الله تعالى بها علينا. وذلك لأن الرحمة لا تأتي بسهولة، فلكل نعمة مقابل يجب تقديمه. وحتى النعم التي رُزقنا بها مجاناً وبدون جهد منا، لها دين الشكر للمنعم ﷻ.

واليوم يجب علينا وضمن حدود قوتنا وإمكاناتنا أداء المهمات الملقاة على عاتقنا بأفضل وأجمل الأساليب، وخاصة العناية بالمسؤولية المتعلقة بتمثيل الإسلام وتبليغه، ولا ينبغي أن ننس مسؤولياتنا تجاه الناس المحرومين والبعيدين عن هداية الإسلام في مختلف بقاع الأرض، وتجاه إخواننا المسلمين الذين يتعرضون للظلم والاضطهاد في شتى بلدان العالم، وينبغي ألا يغيب عن تفكيرنا بأن الإهمال والغفلة في هذا المجال يعرضنا لوبالٍ شديد من الحق ﷻ.

الميزاب الذهبي

مجلة تصدر كل أربعة أشهر

العدد الثامن والعشرون
(أيّار - آب ٢٠١٩)

رئيس التحرير
بيت الله دميرجي أوغلو

مدير التحرير
حسام يوسف

هيئة التحرير
بيت اللّه دميرجي اغلوا
حسام يوسف
آدم أزدمير
د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي
أ. حسن مرشد
أ. ابراهيم الحسن

التصميم والتنضيد والاخراج الفني
حسام يوسف

دار النشر والطباعة
Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك
لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات
والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة
www.islamicpublishing.org
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

التضحية
الدكتور: آدم أركول

٧

كان بمفرده بمثابة مؤسسة وقف كاملة
الأستاذ. عبد الله سرت

٢٨

رمضان العمر
الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

٣٥

أدركوا يا أمة محمد
الأستاذ: أسماعيل لطفي جاكان

كلمة التحرير	١
التضحية	٣
كان بمفرده بمثابة مؤسسة وقف	٧
الإعتدال والتوازن	١٣
حساسية القلب لدى أهل التصوف	١٤
الإحرام	١٦
الثروة التي لا يمكن شراؤها	٢٠
العودة إلى حجر الأب	٢٢
طريق الحق أدق من الدقة	٢٦
العشق الحقيقي	٢٧
رمضان العمر	٢٨
أدركوا يا أمة محمد	٣٥
نفحة من سورة الكهف	٣٨
من هو الأعمى؟	٤٠
جبير بن مطعم	٤٢
أوراق التقويم	٤٤
تزكية النفس	٤٦
سويداء القلب-٧-	٥٠
من وصايا أولياء الله	٥٣
يحضر الضيف ورزقه معه	٥٤
كرم الضيافة لدى أجدادنا	٥٦

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

التضحية

علامة صدق الإيمان

الدكتور: آدم أركول

إن لكل وعد ثمناً. ومن ثم فإنك إن أعطيت وعداً فكأنك تقول وبحزم أني ملتزم بهذا الوعد ومستعد للإيفاء به بكل ما أملك مهما كلف ذلك من ثمن. وهذا الموقف هو ما نسميه الصدق. وهناك الكثير من المواقف والتصرفات وأنماط السلوك التي من شأنها أن تفسد الصدق وتوقع صاحب الوعد في مهاوي الكذب، والنفاق، وفقدان الشخصية. وذلك مثل: نسيان الوعد، أو تجاهله، وإهماله، وعدم اتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه والالتزام به، واختلاق المعاذير للتنصل منه، والتراجع عنه. وعلى ذلك فينغي الاحتياط عند قطع وعد والتفكير ملياً به، وعدم إعطاء أي وعد كيفما كان وبشكل عشوائي دون أخذ إمكانية التنفيذ والوفاء به بالحسبان.

إن قو ل "ربي الله" وعدٌ عظيم، وقضية مصيرية في حياة الإنسان. وأما الإيمان فهو إعطاء هذا الوعد، والالتزام به. والصدق والإخلاص لهذا الوعد هو العلم بأن الله سبحانه وتعالى هو المعبود الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يدين له بالعبودية، والتعلق به بكليتنا، والإقرار بعائديتنا له وإثبات ذلك بالتضحية بكل ما نملك كلما دعت الحاجة، وذلك بالفعل، لا بالقول فحسب.

تُعد الآية القرآنية التي سنوردها فيما يأتي بمثابة قرار إلهي بإجراء اختبار للصدق في الإيمان. حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢- ٣)

إن اختبار الصدق يكون في ميدانين أساسيين، هما: النفس، والممتلكات. أي كل ما نملك. يعني اختبار لمصداقيتنا في قول "إنا لله". وهل الأمر في

الواقع والحقيقة على خلاف ذلك؟. والذين يقدمون التضحيات في هذين الميدانين هم المفلحون والسعداء الذين أثبتوا الصدق في العبودية. يقول ربنا عز وجل في معرض بيان هذه الحقيقة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

ومن الأهمية بمكان لموضوعنا أن نذكر هنا ما يقوله الباحث إيزوتسو المعروف بدارساته وأبحاثه اللغوية، وذلك من ناحية إظهار العلاقة بين حس التضحية والتمتع بروح معطية ومتخلية، وبين كلمة إسلام ومسلم:

"إن لكلمة إسلام، أو على الأقل لصيغتها الفعلية أسلم تاريخها/ وجودها الجاهلي. فقد كانت الكلمة تعني في الجاهلية التخلي عموماً. ولكي نكون أكثر دقة، فإن أسلم تعني تخلي المرء عن شيء ما عزيز وغالٍ عليه بشكل خاص، شيءٌ يصعب عليه أو يؤلمه أن يتركه لشخص يطلبه منه. وقد يكون هذا الشيء الغالي نفسه هو. وفي هذه الحالة فإن كلمة أسلم تعني: خضوع النفس كلياً أو استسلامها وتسليمها".

وقد حافظ القرآن الكريم على استخدام هذه الكلمة هذا المعنى الذي ذكرنا. وإن المقصود هنا ليس الإسلام بمعنى الثقافة الدينية الموضوعية والتاريخية، وإنما الإسلام بالمعنى الأصلي المحدد باستسلام النفس وخضوعها للإرادة الإلهية، أي الخطوة التي يتخذها الإنسان بإرادته بتسليم نفسه وروحه للإرادة الإلهية. وباختصار تسليم النفس أو الاستسلام للإرادة الإلهية دون قيد أو شرط كما جاء في الآية القرآنية:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾ (البقرة: ١٢٨) أن يصير الإنسان مسلماً يتضمن أشياءً كثيرة مختلفة، ولكنه من وجهة النظر الخاصة بنا حسب إيزوتسو فإنه يعني هنا بشكل رئيسي أنه إنسان قد تخلى عن أنانيته واعتداده بالقوة الإنسانية، ووقف متواضعاً ذليلاً كعبد أمام الله ربه وسيده.

تين الآية القرآنية الآتية حقيقة أن الذين وضعوا نصب أعينهم التضحية بأنفسهم وأرواحهم في سبيل هم من الذين أثبتوا صدقهم وإخلاصهم فيما عاهدوا الله ﷻ عليه:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣)

إن أصعب ما في الحياة القدرةُ على دفع ثمن نعمة الإيمان، ذلك أنه ليس لهذه النعمة حد واضح. فعلينا بذل أقصى جهدنا وكل استطاعتنا في سبيل الله تعالى، والتعلق برجاء رحمته ومغفرته إلى آخر نَفَس في حياتنا. لأن الإيمان لطف وإحسان من الله تعالى، وهذا الامتحان الذي نحن فيه إنما هو مقياس لدرجة صحة الإيمان، وأما الحفاظ على الإيمان الواجب على المؤمن بالعبادة، والتقوى، والإحسان، والصبر، والشكر، والتضحية، فإنما هو ثمن نيل المكافآت الإلهية بلطف الحق ﷻ وإحسانه.

وما أكثر قصص أبطال الإيمان الذين باعوا أرواحهم وأموالهم ثمناً للجنة التي وعدهم بها الله ﷻ، وقد ذكر لنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم بعضاً من هذه القصص، منهم أصحاب الأخدود الذين ألقي بهمفي نار ملتهبة، وحبيب النجار الذي رجمه القوم الظالمون، وسحرة فرعون الذين قُطِّعَت أيديهم وأرجلهم منخلاف وصُلبوا في جذوع النخل لإيمانهم بسيدنا موسى عليه السلام، ولم يطلبوا من الحق ﷻ أن ينجيهم من هذا الظلم والعذاب الشديد الذي تعرضوا له، وأن يبلغهم السلامة في الدنيا. لقد كان رجاؤهم الوحيد أن يموتوا على الإسلام دون يساوموا على إيمانهم، وأن يخرجوا من هذه الدنيا وقد فازوا بالآخرة، لهذا كانوا يتضرعون إلى ربهم سبحانه وتعالى بقولهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦)

كي لا يتعرضوا للحظات الضعف في إيمانهم، فانتقلوا إلى جوار ربهم شهداء في سبيله.

نستنتج مما سبق أن إثبات الصدق إنما يكون بإظهار أننا ملك لله بكل ما نملك، وذلك بالفعل لا بالقول فحسب. وإذا أمعنا النظر والتأمل في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة يمكننا القول:

إذا لم نستطع أن نجعل فضيلة التضحية بالنفس والروح وإنفاق النعم التي أكرمنا بها الله تعالى في سبيله جزءً من طبيعتنا وشخصيتنا فليس هناك احتمال ولا مجال لأن ننضم إلى قافلة الصالحين والصدقين. في الواقع إن هذه التضحيات بالمال والنفس هي من أفضل وأسمى الاستثمارات الرابحة والمباركة التي من شأنها أن تحسن شخصيتنا، وتحقق رفاهيتنا وسعادتنا الدنيوية، والأبعد والأهم من ذلك أنها تتحول إلى رأسمال نجاتنا وسعادتنا في الآخرة التي هي الغاية الأساسية لنا. إن مولانا ﷻ يريد لعباده تحقيق المزيد من المكاسب.فقد وعد من يفعل حسنة أن يضاعفها له بعشرةأمثالها. فلن تبق أي تضحية أو أي إحسان مهما كان صغيراً وبسيطاً دون مقابل وجزاء أبداً. وقد جاء التعبير عن هذه الحقيقة في القرآن على لسان لقمان عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ١٦)

قال النبي ﷺ:
«كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعَل فيه، فيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أوالذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!» (رواه البخاري)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

"إذا أعطيت في سبيل الله رغيفاً فسوف تُعطى رغيفاً، وإذا قدمت في سبيله روحاً فلسوف توهب أرواحاً كثيرة".

والنتيجة؛ إن الذين يعيشون في دار الامتحان والابتلاء هذه في سبيل منافعهم ومصالحهم الشخصية فحسب يعيشون صغاراً مهمشين ويموتون صغاراً مهمشين. وأما الذين يجعلون في حياتهم مساحة للآخرين فإن قلوبهم تستنشق روائح الجنة، ويلبسون لباس العزة في الدنيا والآخرة. فلو نظرنا إلى الماضي لوجدنا أن كل القادة والفرسان الذين تركوا بصمات على صفحات التاريخ قد خرجوا من صفوف أصحاب التضحيات ومن نذروا أنفسهم لخدمة الآخرين. وإن الإنجازات والانتصارات والنجاحات قد بنيت دائماً على التضحية. إن التضحية تصبح وسيلة لمحاسن ومزايا أعظم وأسمى مما ذكرنا بالنسبة إلى هؤلاء، ألا وهي التحاقهم بصفوفهم المؤمنين الصادقين.

لنخفف من أعبائنا وأثقالنا

أعلم يا صاحبي؛ أعلم أنك حساس وعاطفي بشأن الإنسان وبشأن كل ما يتعلق بالإنسان. وأنك تريد السعادة والخير لكل الناس. وأنك تأمل وتمنى أن لا يؤذي أحد أحداً ولا يلحق به ضرراً، وأنك تحزن حزناً شديداً إذا ما حدث ما لا تتمناه. أعلم أنك تبكي على الطفل الصغير الذي فقد ذراعه في العراق، وعلى حال المرأة المسكينة التي ترملت في فلسطين، وعلى ذاك الرجل العاجز الذي جرف السيل منزله في أمريكا. وأن الأحداث التي تراها بقربك تحزنك أكثر من تلك البعيدة عنك. أعلم أن قلبك يتألم على ابن جارك المبتلى بالمخدرات، وعلى عائلة قريبك الممزقة نتيجة الطلاق، وعلى والد زميلك الذي تعرض لحادث سير. أعلم أن عجزك عن إجراء التغييرات الحسنة التي تريدها في حياتك وعائلتك، وسلوك وتصرفات زوجك التي لا تعجبك، وفشل ابنك، وتعاسة ابنتك، وعدم تحقق ما كنت تصبو إليه، أعلم أن كل ذلك يُدمع عينيك. وأنك تتساءل قائلاً: ما الخطأ الذي ارتكبته، وأين أخطأت؟. وأنك تريد فعل شيءٍ لتغيير الحال وتصحيح الخطأ، وتقول أريد فعل أشياء جيدة وخيرة لعائلتي ومجتمعي؛ وأنك بعد كل عمل تهم القيام به، وبعد كل محاولة تجد نظرات شريرة، وتسمع كلمات بذيئة، فيضعف اعتقادك بانتصار الخير، والحق المحتوم، وتبدأ بالتقليل من تواصلك وعلاقاتك، والتخفيف من أنشطتك، وتصاب مشاعرك وعواطفك بالفتور. ومن ثم تقول في نفسك من الآن فصاعداً لن أرى كل شيء، ولن أسمع كل شيء، ولن أفكر بكل شيءٍ حتى لا أحزن وأتألم. وتحاول الانطواء على ذاتك، إلا أنك تصبح غريباً عن نفسك. فيزداد حزنك فوق حزن.

تعال يا صاحبي لنتوقف هنا قليلاً ونفكر. هل ما يحدث هي للأفعال الخاطئة التي تقوم بها، أم لنظرتك إلى نتائج أفعالك؟ إن أفعالك التي تقوم بها قد تكون صحيحة وصائبة، إلا أن النتائج الحاصلة قد لا تكون ما تتوخاها وتريدها منها. فكل شيء يحدث كما يجب، وأنت قد فعلت ما هو مطلوب منك وواجب عليك. وأما إن لم تكن نتيجة مساعيك، وجهودك ومحاولاتك كما أردتها فلست أنت المذنب. إذ أن الحياة تسير وفق السيناريو الموضوع لها، وأما نحن فنقوم بتنفيذ ولعب الدور المحدد لنا في هذا السيناريو، وليس من مسؤوليتنا ضبط وتحديد ما الذي سوف يحدث في المشهد التالي. إلا أنه ليس من حقنا أيضاً التخلي عن دورنا في الحياة وإهماله بذريعة أنها لا تسير كما نريد. فنحن سوف نقوم بما نحن مكلفون به، وننهي حياتنا بشرف. وبالطبع نحن لا نستطيع أن نملأ جيوبنا هنا بمجرد التفاؤل والأمنيات. وإنما لا بد لنا من اتخاذ شيء من التدابير والاحتياطات، وإن لم تسر الحياة كما نريد فإنها بكل الأحوال ليست النهاية، ومن ثم سوف نستمر ونواصل طريقنا.

علينا ونحن نسير على هذا الطريق مراعاة جانب الحيطة والحذر من أن لا تتسبب أفعالنا وتصرفاتنا لأحد بألم، وأذى، وحزن، والحرص على مسح دموع العيون الباكية، والتفريج عن القلوب المكروبة، والمسح على رؤوس اليتامى، ورفع الظلم عن القلوب المظلومة والمضطهدة. وعلينا أن نعلم جيداً أن كل عمل خير في هذه الدنيا سوف يرتد على صاحبه حتماً عاجلاً أم آجلاً، وأننا عندما نقوم بالتخفيف عن الآخرين والتفريج عنهم بكل إحسان وعمل من أعمال الخير فإننا إنما نخفف في الوقت ذاته من أعبائنا وأثقالنا.

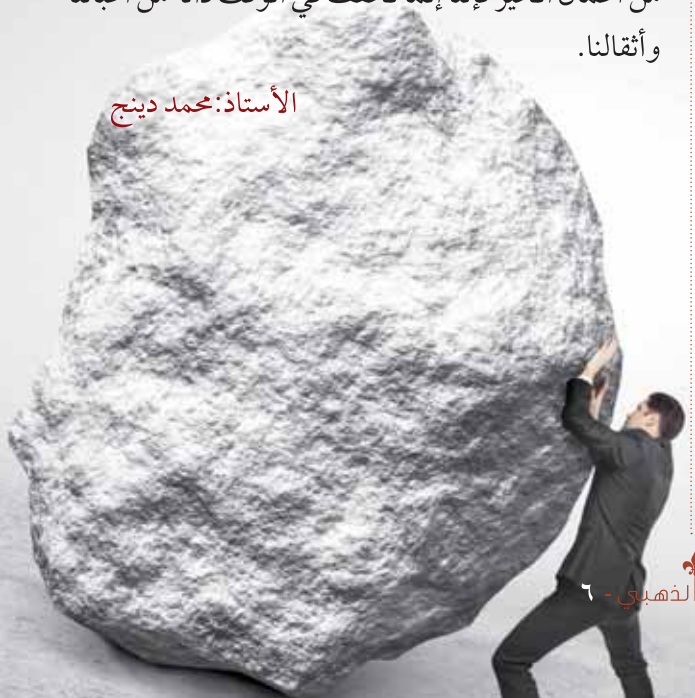

الأستاذ: محمد دينج

الأستاذ: عبد الله سرْت/ حديث عن جانب من حياة الشيخ موسى طوبّاش

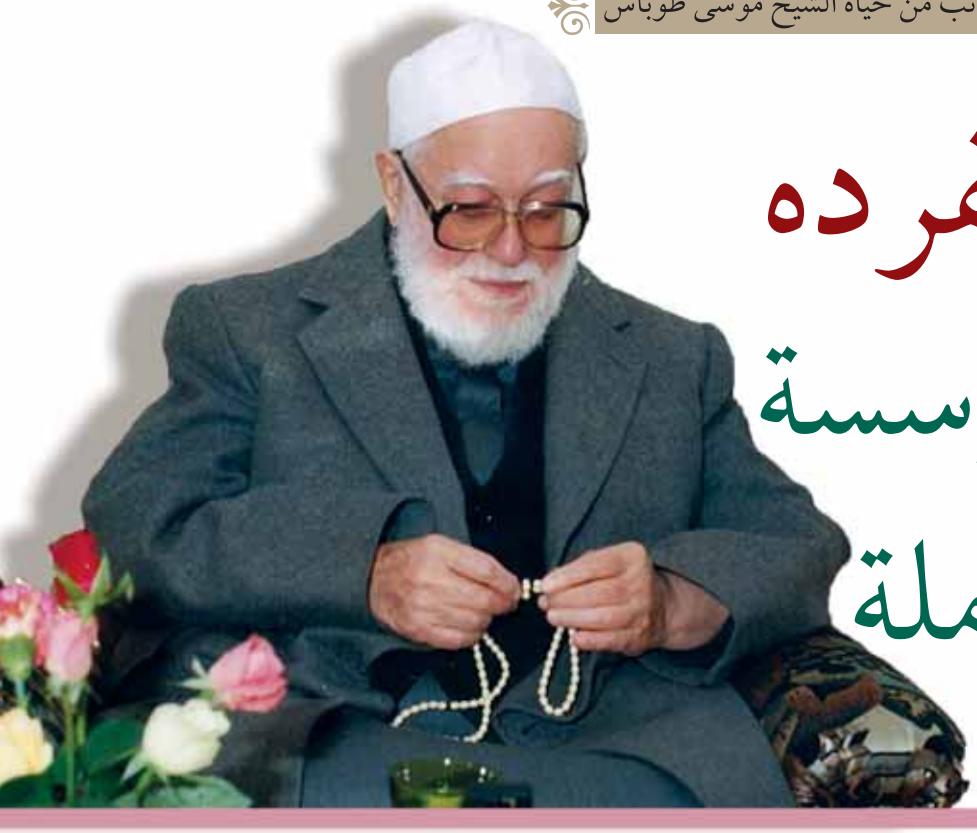

كان بمفرده بمثابة مؤسسة وقف كاملة

إن الحديث عن موسى أفندي يعني من جهة تأجج المشاعر والعواطف. كما أنه نوع من الوفاء له. فموسى أفندي حي وموجود في قلوبنا ووجداننا رغم تعاقب الأيام ومرور السنين. فها قد مضى منذ العام ١٩٩٩ إلى ٢٠١٩ عشرون عاماً. إلا أن الآثار والبصمات (الخدمات) الجميلة التي يتركها الطيبون في هذه الدنيا تبقى خالدة مثل النقوش المرسومة على حجر المرمر التي لا تمحوها السنون. فالطيبون من الناس أول ما ينقشون آثارهم ينقشونها في القلوب. ويتركون آثاراً وبصمات بغاية الجمال في المجتمع. وإن آثارهم ليست بتلك التي تقتصر رؤيتها وملاحظتها على أشخاص محدودين، وإنما هي آثار ربَّما يراها الآلاف بل عشرات أو مئات الآلاف. ولهم آثار قد تكون غير مرئية في عصرهم، ولكنها تظهر للناس بعد رحيلهم بسنوات. فهناك الكثير من الناس لم يروا موسى أفندي، إلا أنهم يرون آثاره ويرون أعماله، ويسمعون بالخدمات الجليلة والجميلة التي قدمها. ألا ترى أن الماء يتدفق من العيون، ومن قمم الجبال والتلال ثم يجري في السهول والوديان ناشراً الحياة والبركة؛ كذلك حال أولياء الله، حيث إن محاسنهم وأعمالهم الجميلة تظل متدفقة على مر التاريخ ناشرةً للخير والبركة.

دائماً ما كنت أقول: إننا اليوم نتحدث عن كبار الأولياء من أمثال أبي يزيد البسطامي، وأبي الحسن الخرقاني، وعبد القادر الجيلاني رغم أنهم عاشوا قبل ألف عام، فإني أؤمن أن سامي أفندي، وموسى أفندي سوف يكونان من الشخصيات التاريخية التي يتحدث الناس عنهم بعد ألف عام إن لم تقم الساعة. إذ إن الآثار والخدمات التي خلفوها وراءهم في هذه الدنيا هي من المحاسن وأعمال الخير التي يُغبطون عليها، ويبحث عنها الناس في كل زمن.

كيف يجب أن ينظر الإنسان إلى المال، وإلى أبنائه؟

عندما تطرح على نفسك هذا السؤال: المال مستقل عن الإنسان، ولكن من أعطاه له؟ فحينها تتغير نظرتك، ورسالتك. وإذا أصغينا إلى تعبير القرآن الكريم نجد أن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦)

وبرأيي فإن نظرة موسى أفندي في هذا المجال مهمة للغاية إذ يرى أن المال ليس من أساسيات وأصول الحياة الدنيا. فهو شيء زائد على أصل الحياة، فهو زينة لها. إلا أن تلك الزينة تجملنا. وإذا تجملت بتلك الزينة، فإنك تستخدمها بشكل حسن وجميل، ومن ثم تقرأها وتفهمها بشكل صحيح. أي إن الأشياء التي عبر عنها القرآن الكريم أنها زينة هي في الأساس تضفي على الإنسان جمالاً مختلفاً. إلا أنك بإمكانك أن تجعلها مناسبة لك ولائقة بك. وكذلك الإنفاق، والمال والملك.

ويجب علينا أن نفهم ماهية المال حتى يحمل معنى الإنفاق. فمثلاً نحن لم نحصل على يدنا بكسبنا، وربما يدرك الإنسان أنه ليس له فضل وجهد في اكتساب يده، ولكن قد يدعي أنه هو من اكتسب ماله ويتحول فجأة إلى قارون. يقول القرآن الكريم على لسان قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ...﴾ (القصص: ٧٨)

أي أنني اكتسبت هذه الثروة بعلمي، ومعرفتي، وجهدي وعملي.

لما أسسنا دار الأرقم قال لنا موسى أفندي رحمه الله تعالى لما أنَّ للمسألة جانب تجاري أيضاً: آمل وأنتم تبدأون هذا العمل أن تستودعوه الله تعالى قبل كل شيء. أي ليس هناك مكان للقول مثلاً:

"إنني أمارس التجارة، ولدي المال والمعرفة والدراية الكافية، لذا فإن نجاحي وربحي قطعي في هذا العمل".

إن أعطاك الله تعالى فإنك ستربح وتكسب. ولا ريب أن الإنسان يكد ويجهد، ولكن الرزاق هو الله تعالى، وهو صاحب القول الفصل، ولن يحدث إلا ما يقدره... فإن كان الأمر كذلك، فإن كل شيء موجود لديك من مال وغيره إنما هو شيء خلقه الله تعالى. فنحن لا نوجد ولا نخلق وإنما الله تعالى هو الخالق والموجد... فالله خلق الأرض، وخلق ما فيها من معادن، وحجارة، ونباتات وغيرها، ونحن لا نقوم سوى بتجميعها واستعمالها. فنحن لا نخلق شيئاً ابتداءً. فالشيء الذي نقوله عن المال الموجود ابتداءً: إنما هو شيءٌ خلقه الحق سبحانه وتعالى. وعلى ذلك فإننا إنما نقوم بتجميع شيء خلقه وأوجده الله تعالى، وأنت عندما تقوم بتجميع هذا الشيء وتقول أوجدت أو خلقت هذا فإنك تنسب إلى نفسك القوة والقدرة والعياذ بالله.

والعلاقة بالرزاق تعني أن الأشياء الموجودة بين أيدينا إنما أعطيناها كرزق. فننظر إلى المال على أنه رزق منحنا إياه الله تعالى، وليس شيئاً اكتسبناه بمعرفتنا، وعقلنا. أجل؛ فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

أي أن الحق سبحانه وتعالى يقول: نحن أعطيناكم. فنحن نعطيكم، وأنتم إنما تنفقون مما أعطيناكمه. فهذا المال ليس من إيجادنا وخلقنا.

إن أغنى الأغنياء عندما يُعطِي شيئاً فإنما يعطِي شيئاً رزقه الله تعالى إياه. ودعونا قبل الانتقال إلى أخلاق الإنفاق

العلاقة بالرزاق تعني أن الأشياء الموجودة بين أيدينا إنما أعطيناها كرزق. فننظر إلى المال على أنه رزق منحنا إياه الله تعالى، وليس شيئاً اكتسبناه بمعرفتنا، وعقلنا؟. فالله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

لدى موسى أفندي نتوقف على ما جاء في القرآن الكريم حول أخلاق الإنفاق...

عندما ننظر إلى القرآن الكريم نجد أنَّ للإنسان جانبين. أما الأول فهو جانبنا الذي يتوجه إلى الحق ﷻ بالقول:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

فهناك ضمير الجمع. أي لا يقول الواحد منا "أنا"، وإنما نقول "نحن". فجميعنا يبدأ الفاتحة بالقول: "يا رب إننا – أمةَ محمد – لا نعبد أحداً غيرك. ونطلب نحن جميعنا العون منك". فنتكلم بصيغة الجمع "نحن". أي إنني لست إنساناً وحيداً في هذه الدنيا. فأنا بصحبة كائنات أخرى خلقها الحق سبحانه وتعالى معي. وهي لا تقتصر على الإنسان وحده.

وأما الجانب الثاني فهو جانبنا الذي يتوجه وينظر إلى المجتمع. ومن ثم فإن القرآن الكريم يأمرنا بعد رفع أيدينا وتوجهنا إلى ربنا سبحانه وتعالى، أن ننظر على الفور إلى مجتمعنا الذي نتواجد ونعيش فيه، وإن لم يكن هناك مجتمع فعلينا أن ننظر إلى الكائنات الأخرى من حولنا، كالحيوانات مثلاً. إذاً فالإنسان له جانب يفتح فيه قلبه إلى الحق سبحانه وتعالى، وجانب يتوجه به إلى سائر مخلوقات الله تعالى.

إن الدين يُعرَّف أنه: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. أي أن الدين أولاً عبارة عن تعظيم وتسليم تام للحق سبحانه وتعالى، وثانياً هو شفقة على سائر مخلوقات الله تعالى ورحمة بهم. فجانب الشفقة والرحمة في التطبيق العملي، هو إيصال الإنسان ما يملكه إلى غيره. فهذا ما يعرضه القرآن الكريم حيث يقول:

﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣)

ويقول أيضاً بعبارة أكثر وضوحاً وبياناً:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

أي أننا عندما ننفق شيئاً، لا نتفضل؛ وإنما نؤدي حقاً لشخص ما. والله هو من فرض هذا الحق.

فالإسلام ينظر إلى الزكاة المفروضة والصدقات خارج الزكاة على أنها أمانة للغير في يديك. فللغير حق متعلق بذمتك. وعندما ينظر الإنسان إلى نفسه، وإلى الإمكانات التي بين يديه، ويقيم بشأنها علاقة سليمةً صحيحة مع ربه سبحانه وتعالى فإنه يؤدي الزكاة والصدقات بكل يسر وسهولة وكأنها أمور طبيعية في حياته شأنها كشأن الطعام والشراب. وبالمقابل فإنها تكون بمثابة خروج الروح بالنسبة لآخرين، وذلك بسبب عدم قراءته الصحيحة للحقائق. فهم لا يقرأون بشكل صحيح أنفسهم، ولا الإمكانات التي بين أيديهم. وأما الإنسان الذي هو مثل موسى أفندي فإنه يجعل العطاء متعة ولذة. وأنقل هنا مقولة عنه، فهو كان عندما يتحدث عن العطاء يبتسم واضعاً يده على صدره ويقول:

"إذا أعطى إنسان شيئاً لوجه الله، وهبه الله سعة صدر عظيمة".

أي عندما يعطي يستمتع ويتلذذ، لا يتضايق. ولا يهمه إن كان يعطي قليلاً أو كثيراً.

الإنسان الذي حقق الكمال في الإنفاق

دعونا أن نتابع الحديث عن أخلاق الإنفاق لدى موسى أفندي وعن كيفية تمثل أدب الإنفاق المذكور في القرآن الكريم في حياة موسى أفندي، وكيف تحولت إلى نماذج جميلة. والحديث عن الصفات المميزة العشرة لموسى أفندي كانت حساسية الإنفاق، وأدبه ومتعته، والتشوق له يحتل رأس القائمة فيها. ولذلك فإنني أجد أن للحديث عن أخلاق الإنفاق لدى موسى أفندي أهمية كبيرة.

كان موسى أفندي إنساناً يعطي من كل ما يقع تحت يديه. أي لم يكن يقل: أنفق من هذا دون ذاك. بل كان ينفق من كل شيء حتى من حديقته، وإن جاءه ضيف كان يستضيفه في أفضل مكان في بيته. وإن كانت لديه عربة كان يقول استعملوا هذه العربة. وإن كانت لديه سجادة فإنه كان يعطيها ولو كانت ثمينة وقيمة. فلم يكن يخصص شيئاً بالبذل دون آخر أو ينسبه لنفسه أبداً.

ومن إحدى الصفات المميزة لموسى أفندي أيضاً فَناؤه وتمازجه مع تلك السلسلة الذهبية التي حمل الأمانة عنها. فلا يمكنك أن تقرأ شيئاً عنهم ثم لا تراه في حياة موسى أفندي. ألم يكن شاه نقشبد إذا لبس قميصاً يقول:

"هذا القميص أمانة بين أيدينا".

فكان يعتبر كل شيءٍ حتى القميص أمانة ويستطيع أن يعطيه لغيره متى شاء. وذلك مثلما أعطى الرسول ﷺ حُلَّته للسائل. فكل الجمال والحسن يبدأ من هناك. ولعل ذلك الشيء الذي أسميناه من قبل بالنظرة تبدأ من هناك. أي من رغبة الاقتراب من هدي رسول الله ﷺ وسَمته. من معرفته معرفة يقينية. لأن التصوف في الواقع هو بذل الجهد لنقل حياة الرسول ﷺ إلى حياتنا. ولا أقول: نقل جميع حياته بحذافيرها لأن ذلك لا نستطيعه، وإنما بذل الجهد. فهو سعي ومجاهدة.

اللباقة والظرافة في العطاء

إلا أن أهمَّ شيء أردت التوقف عنده هناك وبشكل خاص هو أدب الإعطاء، وكيفية الإعطاء.

بطبيعة الحال عندما يُذكر موسى أفندي فإنه سرعان ما يخطر في البال ذاك الأدب. إن موسى أفندي كان إن أعطى شيئاً لأحد من الناس ولو لطفل، فإنه كان يهتم بهم ويتلطف. إنه إنسان الظرافة. فأنت عندما ترسم رسماً ظريفاً ولطيفاً يظهر فيه موسى أفندي. وكنا قد وضعنا صورةً له وهو يمسح رأس طفل على غلاف دارنا في مجلة آلتن أولوك. فهذا نوعٌ من البذل والعطاء أيضاً. وحتى التبسم عطاء. حيث تبقى في عالم الطفولة حرارة يدك الموضوعة على رأس ما، وجمال الابتسامة التي ترتسم على شفتيك.

كان يذهب إلى الطفل فيقول له: مبارك يا بني. ثم يضع الظرف بيده ووجهه متجه نحو ناحية أخرى، ثم يمضي. والصورة الأخرى هي أن يذهب إلى الطفل وينظر إلى عينيه، ثم يقول له: "ستكون بإذن الله من الصالحين يا بني، مبارك طهورك". وبذلك فإنه يوليه أهمية ويعطيه قيمة.

وبذلك فإنه يوليه أهمية ويعطيه قيمة. فالنبي ﷺ كان إذا تحدث إلى طفل ينحني حتى يصل إلى محاذاته. وتنظر عينه إلى عينه. ثم يقول الطفل: هل لي أن أقبل يدك يا سيدي. فيقول تفضل مثلاً. فيقبل الطفل يده، ولا يُعرف هل يُسعد الطفل بالنقود التي أخذها أم بيد ولي الله الناعمة واللطيفة التي قبلها. فهذه قبلة لا تنسى.

ومن جهة أخرى فإنه كان إذا أرسل هدية إلى إنسان من أهل العلم أو غيره وضعها في ظرف أيضاً، وتمنى عليه قبول هديته. فيحفظ بذلك كرامة العالِم، وكان يعتبر نفسه مديوناً لمن أرسل إليه الهدية لأنه قبلها منه. وهذا الأمر مهم للغاية. ومن جملة الهدايا كانت الأقمشة، وسجادات الصلاة، وكان يغلفها بشكل جميل جداً.

وكان إذا اختار الهدية يراعي حاجة الشخص. فمثلاً إذا أهدى لكاتب فإنه يختاراً له قلماً جميلاً جيداً. وإذا ما أهدى لشاب بمناسبة زواجه فإنه كان يختارله كتاباً يتحدث عن الزواج، ويكتب عليه "اقرأوا هذا الكتاب". إلا أنه كان يختار ذلك الكتاب من أفضل الطبعات، وأحسن المحتويات. وكان عند إرسال هدية لامرأة أرملة اختار ما يناسب حاجتها. ما أريد قوله أنه كان عندما يعطي شيئاً يراعي حاجة الشخص الذي يعطيه ويحرص على أن يلبي حاجته. ولا يعطي القليل، وإنما يعطي حسب حاجة الشخص.

ومن المهم من هذه الناحية التوقف على ثلاثة أشياء. أي لِمَ نعطي؟ وكيف نعطي؟ وماذا نعطي؟. كان موسى أفندي يقول أحياناً: "نظل لمدة طويلة نطعم الذين من حولنا مما نأكل، وهذا الأمر سهل لأنَّ طعامنا معروف ومحدد؛ ولكن هل نستطيع أن نلبسهم مما نلبس؟". فالصواب هو الإطعام مما تأكل، والإكساء مما تلبس، والإعطاء مما تستعمل. أي إعطاء ما تحب. وقد كانت لديه مخطوطات ذات قيمة كبيرة من الناحية المادية، فقد كان قد عمل ذات يوم مجموعة مخطوطات، ولعلها كانت ثروة مادية، إلا أنك تنظر فتجد أنه بكل سهولة يمكن أن يعطيها لشخص أحبه. ففي الحقيقة كان موسى أفندي إنساناً قادراً على رؤية مختلف الاحتياجات في المجتمع.

إن حالة القلب مهمة للغاية عند العطاء. ومن ثم يجب على الإنسان أن يهتم بتربيته القلبية مدى الحياة. فعندما يولي أهمية لتربيته وترقيته القلبية فإن ينجح في اتخاذ قرارات صحيحة والقيام بأعمال سليمة في هذا المضمار. فإن اعتنى الإنسان بنفسه، وبحالته المعنوية، وبما يجب أن يفعله، وكيف يفعله، والتزم بأخلاق رسول الله الحميدة فحينها يتخذ القرارات السليمة.

كان بمفرده بمثابة مؤسسة وقف كاملة

كان موسى أفندي بمفرده بمثابة مؤسسة وقف كاملة. حيث كنا في تلك الأيام نملأ السندات الوقفية العائدة لمؤسسة وقف هدائي بكل ما يخطر في بالنا. فنكتب في السندات كل خدمة يمكن تأديتها في تركيا. إلا أن موسى أفندي ومن دون مبالغة كان وكأنه يقيد كل ذلك في دفتر قلبه، ثم يقوم بتنفيذها كلها بمفرده. وكما ذكرت من قبل فإنه كان يبين كيف سيتم تنفيذ هذا العمل أيضاً. حيث قال لي: "يا سيد عبد الله! ليكن لدينا ميزانية لليتامى أيضاً. دعنا نخصص ميزانية بشأن ثلاثة أطفال كل سنة. وإني أسند هذه المهمة إليك، ولكن على أن يكون ذلك على شكل تقديم منحة للأطفال. وإنما سوف تهتم وترعى هؤلاء الأطفال كما ترعى أطفالك. فتتابع دروسهم، وتشرف على نشاطهم لمعرفة ما إن كانوا يشتركون في مجالس الصحبة أم لا. وتراقب وضع الأطفال الأخلاقي، وعباداتهم. فغايتنا ليست تقديم المال لأولئك الاطفال، وإنما تربيتهم وإعدادهم ليكونوا نموذجاً للمسلم المثالي ضمن أمة محمد. وإلا فالمال يعطيه أي إنسان. لذا فعليك حتماً الاهتمام بذلك". إنها مسؤولية عظيمة ورائعة.

الحالة القلبية رأس كل شيء

وإن تطرقنا لمبادئ موسى أفندي فيجب أولاً أن نولي في حياتنا الأهمية والعناية بما نسميه بالاقتصاد، وهو الحساب الدقيق لدخول الأموال وخروجها. فموسى أفندي كان يقول:

"إذا لم يعرف ولم يدرك الإنسان حسابه وكتابه المتمثل في شخصه، ولم يكن بداخله مفهوم الاقتصاد فإنه لن يُوفق للعطاء والإنفاق ولو كانت ثروته كالجبال".

فعلى الإنسان أن يدرك أنه مكلف بالإنفاق بغض النظر عن حالته. حيث إنه قال في أحد مجالس الصحبة: "قبل ستين سنة كان الفقراء أيضاً ينفقون". أي أن هذا الأمر مهم أيضاً. فلو قال الإنسان: إنه سوف ينفق إن وصل إلى حال معينة، فإنه أصبح في المجهول، إذ لا يُعرف متى سيكون بتلك الحال التي يتحدث عنها. وكذلك ليس من المعروف ما إذا كان سيحدث ذلك أم لا. ومن ثم فإن موضوع الإنفاق ينبغي أن يكون حاضراً في حياة كل إنسان وحسب ظروفه. وبعد ذلك وكما أسلفنا من قبل على الإنسان أن يفكر بأكثر الأمور التي يحتاجها الناس اليوم. إذ إن حاجات الأمس شيء، وحاجات اليوم شيء آخر، فالحاجات تختلف من وقت لآخر. فمثلاً القارة الأفريقية لم تكن محتاجة في الأمس، إلا أنها محتاجة اليوم. وكذلك ربما لم يكن حاجة للكثير من الاستثمارات والنفقات المتعلقة بالشباب، إلا أن اليوم هناك حاجة كبيرة لذلك، فيجب أخذ ما هو قائم اليوم بعين الاعتبار. فيجب النظر إلى حاجات اليوم، والتثبت منها والتوقف عليها بشكل جيد.

وفي الحقيقة إن حالة القلب مهمة للغاية عند العطاء. ومن ثم يجب على الإنسان أن يهتم بتربيته القلبية مدى الحياة. فعندما يولي أهمية لتربيته وترقيته القلبية فإن ينجح في اتخاذ قرارات صحيحة والقيام بأعمال سليمة في هذا المضمار. فإن اعتنى الإنسان بنفسه، وبحالته المعنوية، وبما يجب أن يفعله، وكيف يفعله، والتزم بأخلاق رسول الله الحميدة فحينها يتخذ القرارات السليمة.

عندما ننظر إلى إنسان ما فإننا ننظر إليه ككل. فمثلاً نقول يداه سليمتان، ووجهه على ما يرام، إلا أن هنا فيه عذراً، وهناك خللاً. وإن خلو الإنسان من الأعذار في عبوديته مرتبط بالتكامل في حياته الداخلية. وكذلك صلاته مرتبطة به، وإنفاقه أيضاً، وإن رعاية الإنسان للحقوق في العلاقات الإنسانية مرتبطة بشكل أساسي بعلاقته مع ربه. فتلك التربية والحالة القلبية للإنسان مهمة في كل شيء. فإن كان في القلب رياء فلا يبقى للإنفاق معنى وقيمة، حيث يصبح الإنفاق فارغاً. وقد ذكرت الحالة القلبية للتعبير عن هذا المعنى. إن مسألة: لماذا أفعل هذا؟ متعلقة بعالمنا أو حياتنا القلبية. حيث إن كان هناك رياء في العمل يصبح الإنفاق فارغاً، والصلاة فارغة من أي مضمون. وكذلك يصبح الإنفاق هباء وفارغاً إن لم تحفظ لسانك أيضاً، فلماذا؟، لأنك إن قلت لإنسان: فعلت لك كذا وكذا فإنك قد منته. بينما يقول الله تعالى لنا:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣)

فإن قدمت مساعدة لأحد ثم نظرت إليه باستعلاء فإن ذلك دليل على عدم كمال الحالة القلبية لديك.

نسأل الله تعالى له الرحمة بقدر ما سجلنا له من مشاهد، إذ إنه قد قدم لنا الكثير من الصور المختلفة الأخرى.

من خصائص الإسلام الرئيسية

الاعتدال والتوازن (٧)

﴿وَالَّذِيْنَ اِذَا اَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا...﴾

الدكتور: مُراد كَيا

يعطي الإسلامُ الاعتدال والتوازن أهمية كبيرة فلا يَهتم بجانب على حساب الآخر وبما أن كلا الطرفين مخلوق من قبل الله تعالى والناس في حاجة إليهما فلا يكون من السليم إهمال أحدهما بالاهتمام بالآخر، بل يلزم إعطاء كل شيء حقه مع الاهتمام به قدر ما يستحق وبهذا المنظور يظهر أن الدنيا رأس مال الفوز بالآخرة وهي مِن هذه الجهة تُعدُّ نعمة قيّمة جداً علينا استخدامها في رضا الله تعالى وأما الآخرة فهي الغاية الرئيسية فلا ننسى ذلك ولا نلتفت إلى وجهات النظر التي تدعو إلى الإقبال على الدنيا فقط ولا إلى رأي الرهبانية المتوجهة إلى الآخرة دون الدنيا في تلبية احتياجات الإنسان، إذ لا نضحّي بإحداها في مقابل الآخر، بل لا بدّ من تنظيمهما ضمن إطار من التوازن الدقيق والتكامل.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

إعلان النبي ﷺ في الأيام الأولى له في المدينة الأخوّة بين المسلمين حيث آخى بين كلِّ مَن هاجر إلى المدينة مِن مكة وكلِّ أنصاري في المدينة ومؤسسة الأخوّة هذه أسهمت في تمكين المسلمين من الفوز بالدنيا والآخرة مع بعضهم البعض إلى جانب فوائدها الجمَّة فكان الصحابة حين يصبحون يغدو أحدهم إلى عمله والآخر إلى رسول الله ﷺ فالذي ذهب إلى رسول الله ﷺ يقرأ على جاره ما أخذه عن الرسول عليه الصلاة والسلام مِن الآيات والأحاديث مساءً وهكذا بالتناوب.[١]

وبالروح والبدن كلاهما تتكوّن وجهتي الإنسان، فحتى لو كانت الروح أصلاً فإن المادة هي مركبها، فعند توحدهما يمكن القيام بشيء ما وبناء عليه فمِن غير الصواب الاهتمام بالروح وترك البدن يبلى فعلى ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام إنَّ مِن بين أول الأساسيّات التي سيُسأل عنها المرء يوم القيامة عن جِسْمِه فيما أبلاه.[٢]

لقد أمر الإسلام بالتوازن حتى في العبادات كالصلاة والصيام والزكاة ولم يحبّذ نَمط حياةٍ تكثر فيها العبادة إلى حدٍّ يبعث بالملل.[٣]

فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى في شأن الإنفاق:

﴿وَالَّذِيْنَ اِذَا اَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان، ٦٧)

لا يميل المسلمون في أي أساس إلى الإفراط بل يتعقبون الاعتدال في كل شيء ولذا يقول الحق تعالى في أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

﴿وكَذلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْدًا﴾ (البقرة، ١٤٣)

---

١. انظر: البخاري، المظالم، ٢٥؛ مسلم، الطهارة، ١٧.

٢. انظر: الترمذي، القيامة، ١ / ٢٤١٧.

٣. انظر: البخاري، الصوم ٥٥، ٥٦، ٥٧، التهجد ٧، الأنبياء ٣٧، النكاح ١، ٨٩؛ مسلم، الصيام ١٨١ ـ ١٩٣؛ أبو داود، الصوم، ٥٥ / ٢٤٢٨

د. سليمان درن

حساسية القلب لدى أهل التصوف

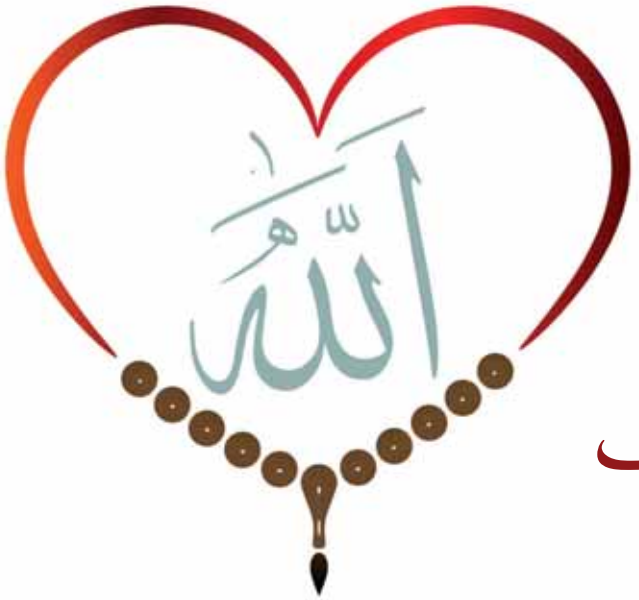

يُعرف الصوفيون بين المسلمين بميزة حساسيتهم الشديدة في مسألة الحرص على عدم التسبب بكسر القلب وإيذائه. لأن القلب بيت الله والقصر المعنوي الذي تجلى فيه. ولهذا فإن كسر القلب يُعد عند أهل التصوف أعظم الذنوب والمعاصي بعد الشرك. وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى الكعبة فقال:

«...**ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيرا**» (رواه ابن ماجة، ٣٩٣٢)

ولعل المقارنات الكثيرة التي نراها بين القلب والكعبة في كتب أهل التصوف إنما كانت انطلاقاً من هذه الروايات. فقد ورد في هذه المؤلفات أن كسر القلب وإيذاءه ذنب أعظم من ذنب هدم الكعبة:

«ما الكعبة إلا بناء حجري من أعمال إبراهيم بن آزر، وأما القلب فمحل النظر الإلهي ومن أعمال الحق سبحانه».

إننا نجد اليوم الذي سادت فيه الأفكار والعلاقات المادية وبكل أسف تراجعاً كبيراً لحساسية عدم إيذاء القلوب بين المسلمين. فكأنه قد نُسي أن إيذاء المسلمين من أعظم الذنوب والمعاصي. فقلما نشاهد في مجتمعاتنا الذي يراعون هذا النوع من حساسية عدم إيذاء القلوب في العلاقات الاجتماعية، والتجارية، والسياسية، والإنسانية، وقد يحتاج المرء للتفتيش عنهم بالسراج من شدة ندرتهم، وذلك بسبب شيوع الجشع والطمع، وسيطرة حب الدنيا على القلوب. هذا في حين أننا نجد كما تخبرنا سورة الفيل أن أبرهة الحبشي الذي خرج بجيشه بنية هدم بيت الله قد هلك هو وجيشه وأفياله حتى قبل محاولة الإقدام على الهدم.

يقول يونس إمره الذي يُعد نجمة لامعة في عالم قلوبنا مستخدماً عبارات عجيبة لبيان جدية المسألة:

«ألا يعلم الشيخ ذو اللحية البيضاء أن لا حاجة لتكبد عناء الذهاب إلى الحج إن كان سيؤذي قلباً..

إن آذيت قلباً فلا صلاتك تنفعك، ولا الأمم تنفعك وتنقذك..»

فحسب رأي يونس امره لا تتحقق الفائدة المرجوة من العبادات من صلاة وصيام وقيام لمن لا يتجنب إيذاء المؤمنين وكسر قلوبهم.

ولهذا فإن مسألة عدم إيذاء القلوب وكسر الخواطر تتمتع بأهمية بالغة في حياة المؤمن، وقد عبر عن ذلك الشيخ أسعد الأربيلي بقوله:

«ما أعلمه أن أول درس في طريق هذا التحصيل "السير والسلوك"، وآخر درس فيه هو عدم إيذاء القلوب...».

لقد عبر أهل الله جميعاً سواء اليوم أو في الماضي عن هذه الحقيقة ذاتها وإن كان هذا التعبير قد جاء بعبارات وكلمات مختلفة. وأفضل من بين أو عبر عن سبب عظمة ذنب إيذاء القلوب وخطورته الكبيرة هو الإمام الرباني. فهو وإن كان مشهوراً بموقفه المتشدد والحازم تجاه أعداء الدين إلا أنه لا يستسيغ إيذاء القلب أبداً. ذلك أن الله ﷻ قد جعل قلب الإنسان أقرب عضو إليه، فالطريق إلى الله يمر بالقلب:

«اعلموا أن القلب جار الله، وليس شيءٌ أقرب إلى جناب قدسه كالقلب. إياكم وإيذاؤه، أي قلب كان مؤمناً كان أو عاصياً، فإن الجار وإن كان عاصياً يُحمى، فاحذروا من ذلك. واحذروا فإنه ليس بعد الكفر الذي هو سبب إيذاء الله تعالى ذنب مثل إيذاء القلب، فإنه أقرب ما يصل إليه سبحانه وتعالى».

وبعبارة أخرى؛ فإن إيذاء قلوب الناس يُعد بمثابة إلحاق الضرر بأهم أعضائهم التي بإمكانهم الوصول بها إلى الحق سبحانه وتعالى. ويمكننا القول إن جاز التعبير أن القلب هو مركز اتصال يؤمن الاتصال بين هذا العالم وبين العالم الآخر.

«إن ما في الإنسان من أشياء إما هو من عالم الخلق أو من عالم الأمر، والقلب برزخ بينهما. وفي مراتب العروج يعرج مما يتضمنها لطائف الإنسان إلى أصوله. مثلاً: يكون عروجه أولاً إلى الماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار، ثم إلى أصول اللطائف، ثم إلى الاسم الجزئي الذي هو ربه، ثم إلى كليه، ثم إلى ما شاء الله ﷻ،وذلك بخلاف القلب فإنه ليس له أصل يعرج إليه، بل يكون العروج منه أولاً إلى الذات تعالت».

ويلخص يونس امره كلام الإمام الرباني المتقدم ذكره بالبيت الآتي:

«القلب عرش الخالق، ونظرُ الخالق إلى القلب؛ فمن هدم قلباً شقي في الدارين الدنيا والآخرة».

ويسمي مولانا جلال الدين الرومي الذي ينبذ ويقصي الناس بسبب الموقف الديني، ولا يبالي بإيذاء القلوب، يسميه «الأحمق والأبله»:

«لمَ الوقاحة وقلة الأدب على باب هذه الدار/ القلب، ما دام من المعلوم من هو داخل الدار/ القلب

إن البُلهاء يقومون بتعظيم المسجد الذي هو من بناء الإنسان، لكنهم يجدّون في جفاء أهل القلوب» (المثنوي، ٢، ٣١٠٨- ١٠٩)

يرى الإمام الرباني-رحمه الله- أن على المسلم الحق أن يكون حذراً ومتيقظاً في مسألة عدم إيذاء القلوب، ولكن في الوقت ذاته عليه أن يكون حريصاً على عدم إهمال حقوق الخالق سبحانه وتعالى أيضاً. فالأصل هنا هو عدم تحويل المسألة إلى مسألة نفسية، وإنما يجب عدم إنزال الجزاء إلا بالقدر الذي أمره الحق سبحانه وتعالى. وكل تجاوز لهذا الحد ظلم للمذنب:

«الخلق كلهم عبيد الله سبحانه وتعالى، والضرب والإهانة لعبد أي شخص كان يوجب إيذاء مولاه. إذاً فكيف هو الحال بشأن المولى ﷻ الذي هو المالك على الإطلاق!، فلا يُتصرف في خلقه إلا بالقدر الذي أمر به هو، فإنه ليس بداخل في الإيذاء، بل هو امتثال لأمر الله تعالى. وذلك مثل الزاني البكر حده مائة سوط، فلو زاد أحد على مائة كان ظلماً وداخلاً في الإيذاء».

نسأل الله تعالى أن يحفظنا ونحن سائرون على طريق المعنويات من أن نؤذي أو نؤذى، وأن يجنبنا الاعتداء على حقوق العباد. آمين!.

الإحرام

رابعة برودبك

بحث الخير عن قلب يستقر فيه فوجد قلب المؤمن الصائم في شهر رمضان المبارك والمقدس. وبحث الخير عن دنيا خالية من المصلحة والمنفعة، والرياء، والكذب، فوجدها القلوب الميتة تجاه الدنيا. فسر ارتداء الإحرام هو الموت تجاه الدنيا.

إن التواضع يمثل العالم والكنز الداخلي لحبيب الله تعالى. فعظمة النبي عليه الصلاة والسلام لا تكمن في علمه، وعرفانه، أو في مكانته ومقامه، وإنما تكمن في فقره، وتفانيه، وعبوديته، وخدمته. فكانت له طبيعة فريدة وسامية لا مثيل لها، حيث كان كلما رفعه الله تعالى وعلا من شأنه ومقامه، وأكرمه بالفضائل والمعجزات، كلما ازداد تواضعاً، وخجلاً، وتعبداً. فخلق التواضع جوهر العبودية. وجوهر العبودية يتوافق مع كنز الإحرام. فالعبد الحقيقي ملك تام وخالص لله تعالى، فلا إرادة خاصة له. فمثله كمثل العبد المطيع والمخلص لصاحبه. وإن عبوديته تبلغ مرتبة عالية من الكمال لدرجة تعجز الكلمات عن وصفها. وأما مظهره فمثل جميع الناس. وهذا هو مقام رسوله ﷺ. فهو عليه الصلاة والسلام دائماً ما كان يتصرف كأي إنسان عادي لا يتمتع بأي سلطة أو جاه، ولم يكن يظهر يوماً عظمته وعلو شأنه عند ربه، ولا يتباهى بنوره، ومقامه. وكان يدعو كمسترشد ومرشد قائلاً: " اللهم! أرنا الأشياء كما هي ". "اللهم زدني علماً".

الآن تبدأ قضيتنا الأساسية، ألا وهي قيامنا نحن النساء بالواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتقنا تجاه الله الرحمن الرحيم. إن الإجابة على سؤال: لم نتحجب؟ ولماذا أمر الله تعالى النساء بالحجاب؟ تكمن في "الإحرام".

فالإحرام لباس النور للأسماء الإلهية، إنه لباس معنوي. الإحرام يمثل الداخل، وما فيه، ويمثل ما للإنسان من أحوال التسليم المليئة بالحياء، والفقر، والاحتياج، والعشق. إنه يعبر عن حال أولياء الله، وأهله، وأحبائه، وعاشقيه. وإن الدخول في الإحرام يعني التجرد عن سائر علامات وأمارات الهوية الدنيوية التي ترمز للنفس، والموت. فينبغي التطهر من الرغبات والشهوات والأهواء، والتحلي بحالة التسليم التام. ولتحقيق جوهر الإحرام يجب أن يكون المظهر الخارجي بغاية البساطة، والتخلي عن سائر العلامات والمظاهر المميزة لتحقيق الجمال الداخلي. بحيث يموت البدن، وتتألق الروح وتتلألأ وتظهر بأبهى وأنقى حلتها. أي ينبغي التجرد من سائر لباس السطحية والزيف والتصنع. ولهذا يجب علينا التحجب. وأما الآن فنبدو عكس ذلك تماماً. حيث أصبح ارتداء الحجاب نوعاً من الموضة، والتباهي، ولفت الأنظار. لقد توصلت إلى النتيجة الآتية بشأن الحجاب في تركيا، وهي أن النساء يحتجن إلى الإحرام أكثر من الرجال. كان يجب لإلغاء قانون منع الحجاب في تركيا أن تبذل النساء جهوداً لأن يكن عفيفات، وذوات حياء، ومتمتعات بالتسليم لله، والصفاء، وبعيدات عن المباهاة والاستعراض. وإلا فإن النساء يبتعدن عن هذه الخصال والمزايا التي هي سبب الحجاب. فارتداء الحجاب يعني الدخول في الإحرام. والإحرام هو الحالة المقدسة التي يتحلى بها الرجال والنساء في الحج. ولكن مع الأسف فإن النساء يعانين من مصاعب كثيرة في معرض الالتزام بهذا الإرث المهم للدين الإسلامي. لقد قال الباحث الأمريكي المسلم سيمس فريدلاندر (Sems Friedlander) كلمة ملفتة للانتباه وهو يتحدث عن حجاب النساء، حيث قال:

الإحرام لباس النور للأسماء الإلهية، إنه لباس معنوي. الإحرام يمثل الداخل، وما فيه، ويمثل ما للإنسان من أحوال التسليم المليئة بالحياء، والفقر، والاحتياج، والعشق. إنه يعبر عن حال أولياء الله، وأهله، وأحبائه، وعاشقيه. وإن الدخول في الإحرام يعني التجرد عن سائر علامات وأمارات الهوية الدنيوية التي ترمز للنفس، والموت. فينبغي التطهر من الرغبات والشهوات والأهواء، والتحلي بحالة التسليم التام. ولتحقيق جوهر الإحرام يجب أن يكون المظهر الخارجي بغاية البساطة، والتخلي عن سائر العلامات والمظاهر المميزة لتحقيق الجمال الداخلي. بحيث يموت البدن، وتتألق الروح وتتلألأ وتظهر بأبهى وأنقى حلتها.

إن النساء في عصرنا هذا يغطين رؤوسهن، ولكنهن بمعاطفهن الضيقة يرتدين زياً أوروبياً. وبناء على ذلك يجب أن نبتعد عن المشاكل الظاهرية للمجتمعات الإسلامية مثل "قضية الحجاب" التي لا يأتي تناولها من الناحية السطحية فقط بنتيجة إيجابية، ونخرج في رحلة كنز الإحرام الباطنية.

لقد كنت قبل اعتناقي الإسلام أعيش في مجتمع تُقدس فيه الفردية، وتُعبد الشخصيات. وبالإضافة إلى ذلك فإنني ولدت في وسط فني أطور وأنمي فيه الجمال البدني لأتمكن من بيع عروض الرقص التي أؤديها. وفي الحقيقة فإن الإنسان في عالم الفن كلما قدم نفسه كشخص مبتذل، وفاسد ومنحرف، ومستعد لإرضاء

الآخرين، كلما حقق مزيداً من النجاح. حتى أن الأمر يقود الإنسان إلى عرض نفسه للبيع كسلعة في سبيل أن يصبح معروفاً بين المشاهير المهمين. وأما الآن وأنا أعيش حياة الإيمان فإن أكثر ما يشدني ويجذبني إليه فهو عكس ذلك، وهو حالة البعد عن الأضواء والشهرة، وجمال التخلي عن الأنا والأنانية التي يمثلها الإحرام الذي يُعد الحالة القدسية للحج. وإني لأجد متعة لا توصف في التواضع، والتفاني، والعبودية، والخضوع. فالجمال النوراني يبرز ويتلألأ بالقضاء على النفس واضمحلالها. والإحرام يمثل تماهي نفس الإنسان وشخصيته وامتزاجهما ببعضهما. فالمظهر الخارجي يتحول إلى غاية البساطة، ويدخل لإكساب العالم الباطني رونقاً وجمالاً إلى حالة لا يمكن وصفها. فالدين الإسلامي يحقق في ابن آدم معجزة حقيقية من رأسه إلى قدمه. وليس هناك دين آخر يحقق في الإنسان هذا التحول الجذري الخالي من النقص والعيوب. وهذه الحالة تمثل ولادة الولي الكامن في داخله. وما حدث معي يمكن وصفه بمعجزة معناها الحقيقي؛ فالذي حدث معي هو تحول من الشهرة إلى الإحرام، ومن سطحية الزيف والخداع إلى نور الإنسانية الحقيقية.

إن الإنسان الغربي يتجه من العالم الداخلي إلى العالم الشكلي. فمن الحرمان، والفراغ، والعدمية، ونقص القيم، والمعنى، والجوانب المعنوية لدى الإنسان تتولد رغبة. فتبدأ عملية بحث بشأن قيم الحياة المفقودة. ومن السهل على الغربيين العثور على الكنز المفقود، لأنه لديهم رغبة العثور على هذا الكنز. مع أن الانتقال من حياة خارجية إلى حياة باطنية، أي من الشكل إلى المعنى بالغ الصعوبة. فإذا كان الإنسان قد أكرم بالإيمان منذ ولادته فمعنى ذلك أنه يمتلك كل شيء، لذا لا يكون لدى ذاك الإنسان تشوق للبحث. إن الإنسان الشرقي يبدو ظاهرياً وكأنه في المعنى، إلا أنهم ليسوا بإخلاص الغربيين في أعمالهم. ولكن لديهم تلهف وتحمس أقل تجاه المعنويات وعالم المعنى، إذ أنهم يشعرون بامتلاكهم كل شيءٍ في هذا الميدان. إن التطور الأساسي ينبع من "الفقر ". لقد كنت خلال حياتي في سويسرا أشعر بالضيق، والفراغ والبعد عن المعنى. كنت أعاني من فقر العشق، وأصبح هذا الألم دوائي. لقد أصبح هذا الفقر غناي، وأصبح هذا الانحطاط صعودي وارتقائي. ويمكن القول بعبارة أخرى صارت خسارتي مكسبي.

إن الناس في عصرنا هذا صاروا ينظرون بعين الشيطان لكون الدنيا قد أعمت أبصارهم. وهكذا فإنهم لا يرون سوى الصور، ولا يدركون سوى ظواهر الرسوم والأشكال، لذا فإنهم يصبحون عبدة الصورة. إنهم ينظرون بعين الشهوة والشره والجشع بدلاً من النظر بعين الحاجة.

الإحرام يمثل تماهي نفس الإنسان وشخصيته وامتزاجهما ببعضهما. فالمظهر الخارجي يتحول إلى غاية البساطة، ويدخل لإكساب العالم الباطني رونقاً وجمالاً إلى حالة لا يمكن وصفها. فالدين الإسلامي يحقق في ابن آدم معجزة حقيقية من رأسه إلى قدمه. وليس هناك دين آخر يحقق في الإنسان هذا التحول الجذري الخالي من النقص والعيوب. وهذه الحالة تمثل ولادة الولي الكامن في داخله

وإن سبب هذا السلوك المتناقض هو تحويل الإنسان لحياته الدنيا إلى ظواهر. فعلانية حياة الإنسانية يُرمز إليها بإبليس، وأما سريرة حياة الإنسان فيرمز إليها بالأنبياء والأولياء. فعلينا إذا ما أردنا أن نعيش حياة كما يشاؤها الله تعالى أن نجعل حياتنا سريرةً، وأن نتخلى عن التعبد للأوثان، ونتخلص من الأوصاف الشيطانية مثـــل: أمراض الأنانية، والجهالة، والحسد، والكبر، والجشع والطمع، وحب الرياسة والظهور وغيرها.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"رغم علم إبليس الواسع إلا أنه كان جاهلاً بجانب العشق للدين. ولهذا فإنه لم ير آدم عليه السلام سوى أثر من طين".

"اغمض عين الشيطان ولو للحظة. فإلى متى سوف تبقى تنظر إلى الصور، إلى متى؟".

إن دأب الشيطان هو إنكار قدسية الإنسان. وقد نظر إلى آدم عليه السلام بعين الإنكار. فلم ير إلا الطين، ولم ير النور. فالعمى المعنوي هو رفض الاعتراف بقدسية الإنسان، والعجز عن رؤية ما فيه من كنز الأنوار. وإن الإنسان المعاصر يبحث عن كل ما تحتويه الأشياء ما عدا الإله سبحانه. إنه عاشق للأشياء الميتة بشكل عبثي لا طائل منه، ولا فلاح معه. وقد وصف الرومي هذه الحالة بقوله:

"الكل عاشق للأشياء الميتة عشقاً جنونياً، ولكن فيه أمل ورجاء تجاه الأشياء الحية".

فطريق تنقية وتصفية قلوبنا يمر بالتخلص مما في داخلنا من المحبة المذمومة للمناصب، والألقاب، والشهرة، والأزواج، والأبناء، والأصحاب. إن أعظم مشكلة هي جهالتنا وانعدام وعينا. فنحن مثل الغيمة التي تغطي شمسنا. مع أن حياة الإنسان بكاملها مسألة باطنية.

يقول مولانا جلال الدين:
"إن الدرويش الساعي خلف الرغيف كالسمكة في البر. فهي سمكة شكلاً ولكنها تهرب من البحر. إنه يحب الله في سبيل الكسب والربح. فنفسه ليست بعاشقة لكمال الله وجماله".

إن جمال الدين الإسلامي يكمن في توحيده وجمعه حقائق الظاهر والباطن. فالله عز وجل يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣)

تُعد هذه الآية الكريمة واحدة من أعظم ما ترك لأمة محمد ﷺ. فهي تحتوي إشارات للوارث المحمدي. فالمهمة المقدسة لمن تبع محمداً ﷺ هي المحافظة على كنز الكمال الإلهي الباطني للإسلام. إذ عندما تهيمن الظاهرية على الإنسان يتعرض الدين الإسلامي للإهانة والاحتقار في بدنه، ومن ثم تنقطع مجاري الفيض الأبدي التي تتدفق من المنافذ الإلهية.

إن المسألة التي تلفت الأنظار هنا هي: إننا حتى ننطلق في رحلة الحث عن الحقيقة بحاجة إلى من يوقظنا من غفلتنا. إننا بحاجة إلى تمزيق حجب أنفسنا، والتطهر من رواسبها وكدوراتها لكي نستعيد مشاعر شوقنا للحق سبحانه، ونشعر بتعطشنا للحقيقة من جديد. فليس أمامنا سوى هذا الخيار لنبدأ سلوك ذاك الصراط المستقيم، ونشتمّ الأسرار الإلهية.

ذات مرة ألقيت كلمة أمام طلبة من الأفارقة في مركز لتدريس القرآن الكريم. لم يسبق لي أن رأيت هكذا عدد كبير من النساء الأفريقيات المتحجبات قد اجتمعن في مكان ما من قبل. كنت كمن يشاهد لوحة من لوحات الجنة. وكانت الابتسامة تعلو وجوههن جميعاً وهن يصغين إلي. لقد برق أمام عيني نور، فقلت لهن: "وأنا أنظر إليكن الآن أشاهد جمال الإحرام البراق المتلألئ". فزادت ابتسامتهن بعد أن قلت لهن ذلك. وكأني عايشت الجنة وأنا في الدنيا...

الثروة التي لا يمكن شراؤها

خديجة يَغَنلر

هناك قيم كثيرة تتمتع بقيمة كبيرة بالنسبة للإنسان. وإن كل من المال، والملك، والشهرة، والمنصب، والصحة، والجمال، والحب، والصداقة وغيرها مجرد بضعة نعم من النعم الكثيرة التي تفضل بها علينا ربنا سبحانه وتعالى. وإن أعظم نعمة والتي تعد كنزاً بحد ذاتها هي حياة الإنسان. وفي خضم توالي الأيام والليالي تنظر فجأة وإذا بالشعر الأسود قد اكتسى بياضاً، وإذا بالبدن القوي المتمتع بنضارة الشباب قد أصابه الترهل والضعف والخلل دون أن تشعر. فلم يعد في الركب الهمة القديمة، ولم يعد في البدن تلك القوة والطاقة المعهودة.

إذاً فالثروة التي لم نعلم ولم ندرك كيف تبددت، والتي لا يمكن شراؤها بالمال هي الوقت. فالزمن هو ذاك الرأسمال الذي لا يمكن حمله ونقله إلى يوم آخر، والذي يتحتم علينا استعماله واستهلاكه حتى نهاية ذاك النهار. إنه ثروة لا تقدر بثمن بحيث لا يمكن شراؤها لا بالنقود، ولا بالذهب، ولا بأغلى المجوهرات. وجميعنا يعلم هذه الحقيقة. ونعلم أيضاً أن هذه الحياة الدنيا إنما هي مرحلة زمنية محدودة من مراحل رحلتنا الطويلة.

ويلفت الحق سبحانه وتعالى انتباهنا إلى أهمية الزمن من خلال قسمه بالعصر في القرآن الكريم.

فكيف يجب علينا استثمار واستعمال وتقييم هذه الثروة والرأسمال الذي لا تقارن قيمته بأي شيء، وتتمتع حتى ثانية واحدة منه بقيمة عظيمة؟

إن تقييم أو استهلاك كل لحظة من حصتنا من كل يوم جديد بمتناول أيدينا. فنحن نملك أن نحولها إلى حالة مستديمة، ونضفي عليها قيمة، ونزخرفها، ونجملها. فينبغي علينا أن ندرك قيمة هذه الثواني واللحظات التي تتحول إلى طائر ويخفق بجناحه بعيداً، الذي يتحول إلى ماء ثم يتبخر في الهواء تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة، الذي لا يمكن تداركه وإحياؤه مرة أخرى، وأن نضبط تصرفاتنا وأفعالنا وفقها. إننا لا نملك إيقاف الزمن، إلا أننا نملك تقييمه ونقله إلى المستقبل.

كثيرون هم من يعرفون حكاية الجرة والحصى، إنها حكاية مشهورة:

لقد أعطوا لرجل قطعاً من الحجارة، وبعض الحصى، وكمية من الرمل، ومقداراً من الماء؛ ووضعوا بين يديه جرة. ثم قالوا له:

هيا قم بتعبئة الجرة بهذه الأشياء كلها.

فما الذي بإمكان الرجل فعله في هذه الحال؟ إذا ملأ الجرة بالماء فلن يبق متسع لشيء آخر. وإن وضع فيها الرمل فلن يبق مكان

للحصى. وإذا جعل الأولوية للحصى فلن يبق مكان لقطع الحجارة. إذاً؛ ما الذي ينبغي أن يفعله هذا الرجل المسكين؟.

لا شك أن عليه البدء بقطع الحجارة الكبيرة. حيث يضع أولاً قطع الحجارة في الجرة ثم يملأ الفراغات بالحصى. ثم يملأ الفراغات الموجودة بين الحصى بالرمل. ثم ينهي عمله بصب الماء في الفراغات الموجودة بين حبات الرمل.

وعلينا نحن بدورنا أن ننظر إلى كل يوم نستيقظ فيه على أنه جرة فارغة بين أيدينا، وأن نفكر بكيفية ملئها بأفضل طريقة.

فالإنسان العاقل يبذل جهده لاستخدام زمنه بمسؤولية ووعي. فكل أعمال الخير التي نفذت عبر التاريخ إنما نفذت من خلال هذا التفكير والوعي السليم.

والإنسان العاقل لا يبالي بالماضي وأحداثه ولا يلهي نفسه بالوقوف على أطلاله والدخول في نفق الهموم والكدورات، وإنما ينظر دائماً إلى المستقبل بتفاؤل وأمل. وإن غايته هي ترك بصمة مميزة وإحداث صدى طيب تحت قبة السماء. إنه في تنافس وسباق مستمر لبلوغ السعادة والسكينة والطمأنينة في الحياة الدنيا وفي الحياة الأبدية على حد سواء.

أنقاذ الإنسانية

إن سيطرة الثقافة المادية في زماننا، وتأثير التلفاز والإنترنت كالسم الزعاف في القلوب، تعرض الأحاسيس المعنوية للضمور، وتضخ المياه في رحى الإسراف للنظام الرأسمالي.

والنتيجة التي تتركها الوحشية الرأسمالية ما هي إلا أنقاض الإنسانية، حيث ينسى الإنسان الدموع، ويغدو عنده ضمير لا يعرف مشاعر الرحمة، ويغلق الأبواب أمام الأرواح الباحثة عن علاج لأمراضها.

ولا مكان للفضيلة والأحاسيس القلبية في الأنظمة الرأسمالية والاجتماعية والشيوعية. فأحدها يدَّعي بأن الملك للمجتمع والآخر بأن الملك للفرد؛ أي هناك اختلاف في كلا النظامين في تثبيت الملكية للمال ومكانه. وفي كليهما تحكم العقلية التي تعتمد على المصالح والاستغلال، وأما الأفراد فهم مثل أسنان جانبي الكماشة.

أما في الإسلام، فإن الملك لله تعالى. والعبد الذي يكون مؤتمناً على هذا المال مدة معينة مثل الموظف الذي له حق تصرف معين في إدارة هذه الممتلكات. ولهذا فإنه من أجل الحصول على المرابح المادية التي سيأتي يوم ويتركها الإنسان ويرحل، لا يوجد استغلال للإنسان والمجتمع، ولا هضم لحقوق العباد، ولا تجاوز لحدود الله تعالى. ويبدأ الاقتصاد الإسلامي

بحل المشاكل الإنسانية، ويعد التكافل وتقديم العون للآخرين -لا سيما أصحاب الحاجات- من الواجبات والفرائض.

وجاء في الآية الكريمة:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات:١٩)

إن هذا الدستور يعد تعليماً لإدارة المال، وكذلك وسيلة لتآلف القلوب.

علي رضا تمّل

العودة إلى حجر الأب

هناك بعض الأبناء ممن يضيقون ذرعاً بحجر آبائهم وحضن أمهاتهم نتيجة لانجرارهم خلف أحلامهم ورغباتهم الطفولية أو بتشجيع وتحفيز من العوامل الخارجية المحيطة، ومن ثم يقدمون على ترك منازلهم دون التفكير بالعواقب الكارثية المترتبة على ذلك. وهم إذ يفعلون ذلك يشعرون في بادئ الأمر كما لو أنهم تخلصوا من جدران السجن، ونالوا الحرية التي ينشدونها. يتدبر هؤلاء وأمثالهم أمور معاشهم في البداية بالمبلغ المالي الذي قد ادخروه أو اختلسوه من منزل الأب، ولكن بعد نفاد هذا المبلغ من جيوبهم بمرور مدة معينة يتحولون شيئاً فشيئاً إلى رأسمال لبعض المتربصين بهكذا نماذج. فإن كانت فتاة فتتعرض للاستغلال البدني، وأما إن كان شاباً فيتعرض للاستغلال المادي. ثم تبدأ الأحلام بالتلاشي واحداً تلو الآخر. وإنهم إذ يعانون مما يعانون منه لا يتجرؤون على العودة إلى حجر آبائهم الذي غادروه. فيتخبطون في مشاعر نفسية قاسية تتمثل بالإحساس بالذنب من جهة، والقلق من عدم قبولهم إذا ما قرروا العودة من جهة أخرى. فيخيم عليهم العجز واليأس، ولا يبقى أمامهم إلا خياران.

إما الاستمرار في حياة مضطربة محفوفة بالمخاطر والآلام والمعاناة وكأنها جحيم، أو إيجاد سبيل للعودة مجدداً إلى حجر الأب، وحضن الأم الدافئ الذي تركوه. أما الخيار الأول فليس سوى انتحار، وأما الخيار الثاني فهو ربيع بعد شتاء قاس. لأنه لا مثيل ولا بديل عن حجر الأب، وحنان الأم أبداً. وإن العودة إلى الحجر الذي ولد وترعرع وكبر فيه المرء هي الخيار الأكثر عقلانية، والسلوك الأكثر أخلاقياً لمن لم يهو بعد إلى وديان الانحطاط، ولم ينس أصله كلياً.

أردت من خلال هذا التقديم توصيف حال المجتمعات المسلمة، والدويلات الإسلامية المصطنعة التي انخدعت وانجرت خلف الأوهام

والمكائد الاستعمارية فتركت على إثرها معقل الأمة الحصين والحامي، ومن ثم الكوارث التي تعرضت وما تزال تتعرض لها منذ أكثر من قرن نتيجة لهذا الترك والتنكر، والهروب من الذات، وتخبطها في المصيدة التي وقعت أو أوقعت فيها.

لقد أصبحت الامبراطورية العثمانية بعد عهد الخلفاء الراشدين أهم حصن لهذه الأمة وأكثرها إحكاماً وحصانة. وقد عاشت هذه الأمة لقرون طويلة وهي تتفيأ تحت ظلال هذه الشجرة العظيمة وهي تتمتع بالأمان والطمأنينة. كانت منطقة الأناضول الحضن الدافئ لهذه الأمة. وكانت اسطنبول مركز الخلافة بمثابة الأب العطوف لهذه الأمة العظيمة. وكان إذا ما تعرض الأبناء الذين يعيشون على أرض الإسلام لأدنى خطر محتمل تتحرك في الحال الجيوش وقطعات العسكر لنجدتهم ودرء الخطر عنهم. لقد كانت قوة العثمانيين النابعة من الإسلام ومن وحدة الأمة مصدر أمن وضمانة للمسلمين ولغير المسلمين على حد سواء.

كما أن وقائع الميلاد، والتقدم في العمر، ثم الممات قدر كل إنسان، فإنها كذلك قدر كل الدول والامبراطوريات. فالبقاء محصور بالله تعالى وحده. أجل؛ فالامبراطورية العثمانية ولدت، ثم نمت وكبرت، وقويت، ثم دخلت مرحلة التفكك والانهيار. وبالطبع هناك جملة من الأسباب التي مهدت للنتائج الحاصلة. ولسنا هنا بصدد الوقوف على أسباب انهيار الامبراطورية العثمانية بشكل مفصل ومطول. إلا أنه يأتي في مقدمة هذه الأسباب عصيان الأبناء لأبيهم الذي ظلوا طوال قرون وهم يترعرعون في حجره، ويسندون ظهورهم إلى جدرانه المتينة بمأمن عن كل خطر وشر. لقد دخلت المجتمعات التي كانت تعيش تحت سقف الدولة العثمانية وتتفيأ في ظلالها، دخلت في سباق الانسلاخ عن هذه الامبراطورية التي كانت ملجأهم، ومأواهم ومأمنهم من كل شر نتيجة استجابتهم للمحرضات والإغراءات الداخلية والخارجية تماماً كهروب الأبناء من دار الآباء استجابة للمغريات والمؤثرات المحيطة بهم.

لقد انفصلوا عن الكتلة الأساسية الجامعة وتفرقوا شيعاً تحت تأثير الفتن القومية كالعروبية، والتركية، والطورانية، والسلافية وغيرها. ولو أن هذه الشعوب انفصلت لتتجه إلى تشكيل أرضية أكثر صلابة وتحقيق وحدة وتلاحم أقوى وأكثر تماساً بدلاً من تشكيل دويلات صغيرة تتحول إلى لقيمات سهلة الابتلاع لما تعرضت لهذه الكوارث والمصائب التي تعيشها اليوم.

كان مثل الامبراطورية العثمانية بالنسبة للأمة كمثل حبة الإمام والخيط الذي يجمع حبات المسبحة. فإذا ما انقطع الخيط وسقط الإمام تفرقت الحبات وتبعثرت على الأرض تحت أقدام من قطع الخيط.

في الحقيقة ماذا الذي كسبته الدول التي انفصلت عن الامبراطورية العثمانية ونالت استقلالها وحريتها المزعومة؟ إذ إن من كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية نظرة الأب الظالم يأنون اليوم تحت وطأة ظلم الأسياد المحليين والغرباء.

فهل يوجد اليوم استقلال حقيقي في أي دولة من الدول الإسلامية التي تدعي نيلها استقلالها المزعوم؟ فها هي فلسطين، وسوريا، والعراق، ومصر، وليبيا، والكويت، ودول الخليج، واليمن، وأفغانستان تعاني اليوم من شتى أشكال الظلم، والاضطهاد والإهانة وهضم الحقوق على يد الأجنبي ومن وضع يده في يدهم من أبناء المنطقة. إن أبناء هذه الدول يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، ولا يبدو أمام

لقد أصبحت الخلافة العثمانية بعد عهد الخلفاء الراشدين من أهم الحصون لهذه الأمة وأكثرها إحكاماً. وقد عاشت هذه الأمة لقرون طويلة وهي تتفيأ تحت ظلال هذه الشجرة العظيمة وهي تتمتع بالأمان والطمأنينة. وكانت الحضن الدافئ لهذه الأمة.

أبصارهم أي ملجأ سوى تركيا، سوى حجر الأب الآمن. إذ كان في عقود سابقة يوجد لاجئين في تركيا من يوغسلافيا، وبلغاريا، وتراقيا الغربية. وأما اليوم فهناك مئات الآلاف، وربما الملايين من المظلومين القادمين من سوريا والعراق ليجدوا متنفساً ومأوى لهم في تركيا. وكذلك يهرع إلى بلدنا كل من تضيق به الأحوال وتشتد عليه المصائب من أبناء البلقان، والجمهوريات التركية.

إن كلاً من التاريخ، والجغرافيا، والظروف تضطر وتجبر تركيا إلى تصبح من جديد الدولة العثمانية، وتصبح حجر الأب للجميع. ولا يمكن الوقوف في وجه هذا الجبر والاضطرار حتى ولو لم يرده البعض. فهذا نوعاً ما بمثابة جبرية القدر، والقدر لا مفر منه.

إن المسألة برمتها تتمثل بقراءة روح الزمن والاستعداد جيداً للقيام بالدور المسند أو الذي سوف يُسند إلينا عوضاً عن التهرب من المسؤولية. فالهروب لا يُنقذ صاحبه من هذه المعمعة. لأنه لا خلاص ولا نجاة للهاربين سوى حجر الأب. فكل الأماكن غريبة، وكل الناس غرباء. وكل الذين غادروا منازلهم يعانون اليوم من مشاعر الندم الشديد، ومجبرون على العودة إلى تلك المنازل.

وإن كانت تركيا ليست بالغني إلا أنه ليس بالأب الذي يترك أبناءه الهاربين ويتخلى عنهم، فهو رغم كل شيء يفتح لهم ذراعيه، ويأخذهم بين أحضانه، ويقاسمهم طعامه وشرابه. فقد قدمت تركيا وبمفردها التضحيات التي لم تقدمها، ولا تستطيع تقديمها الأمم المتحدة. إن تركيا تتحول إلى أمل للمظلومين والمضطهدين. فبلدنا الذي لم يكن يؤبه به، وكان محتقراً، ومنبوذاً ومُبعداً عن القضايا واللعبة الدولية في الأمس صار اليوم هو من يدير اللعبة، ويؤخذ رأيه في القضايا الهامة، ويُنتظر صدور موقفه منها. وأصبح كل من كان يحيك مؤامرات ومكائد الغدر والخيانة لتمزيق الامبراطورية العثمانية وكل من انخدع بهذه المكائد واشترك في هذه المؤامرات بالأمس شاهداً اليوم على هذه الحقيقة. فعندما نرى طوابير اللاجئين الطويلة المصطفين عند الحدود السورية، والعراقية وهم يحاولون اللجوء إلى تركيا نشعر بعودة الدولة العثمانية، ونشاهد ظلال العثمانيين، ونسمع وقع أقدامهم.

رغم أنه من أفضل الطرق وأكثرها عقلانية لتجنب المصائب وعدم التعرض الخسائر هي الإصغاء للنصائح قبل وقوعها، إلا أنه وبكل أسف لا يدرك الناس المصائب والكوارث التي ينساقون إليها ولا ينتبهون لها إلا إذا حلت بهم، وارتطمت رؤوسهم بالجدار.

لقد تعرض العالم الإسلامي منذ أن فارق حصن الأمة الحصين للكثير من المصائب والنكبات والخسائر. وتُعد فلسطين، وسوريا، والعراق، ومصر من أكثر البلدان التي تدفع فاتورة هذا الفراق وبصورة مؤلمة ومحزنة تعجز الكلمات عن التعبير عنها. وقد كان هذا الانفصال والفراق عن حصن الأمة بصورة إعلان العصيان على السلطة الحاكمة والخروج عليها، والتعامل والتآمر مع القوى الخارجية المعادية ضدها أكثر من كونه تركاً وانفصالاً عن المكان. ربما الجميع يعيش على أرضه وفوق تراب وطنه، إلا أن هناك فرقاً

ين العيش والآخر. إذ العيش على أرض الوطن بحرية وكرامة ليس كالعيش فوقه غريباً ذليلاً ومنبوذاً.

إن السبيل الوحيد للخلاص من الذل والهوان هو العودة إلى حجر الأب، وإحياء حصن الأمة وإصلاحه وترميمه من جديد. فإحياء الأمة القوية وإعادة بنائها مرتبط بذلك. وربما لن يكون هذا الإحياء والبناء باستعادة الامبراطورية العثمانية التي كانت تقوم بدور الأبوة كما كانت تماماً. إذ أن التاريخ لا يُعاد بذاته، فهو لا يتكرر بكل تفاصيله. إلا أنه يمكن تأسيس سلطة عادلة وجامعة كالتي حققتها السلطنة العثمانية على شكل اتحاد إسلامي، أو برلمان إسلامي وذلك مثل الاتحاد الأوروبي، والبرلمان الأوروبي. ويكون الوصول إلى هذه الغاية بجعل الاختلافات العرقية، والمذهبية، والطائفية، والجغرافية وسيلة للتلاقي والتلاحم بدل الفرقة والتناحر، والالتقاء والالتفاف حول فكرة وشعور الخضوع بالعبودية لله وحده، والانتماء لأمة محمد ﷺ، والتوجه للقبلة ذاتها، وامتلاك الكتاب ذاته. كما أن أوروبا التي عاشت لقرون طويلة حروباً دينية وطائفية دامية، وقتل من مواطنيها الملايين في الحربين العالميتين الأولى والثانية قد استنبطت الدروس والعبر من ماضيها وتصالحت وتوحدت فيما بينهما، فكذلك يجب على المسلمين الذين تعرضوا للمآسي والكوارث ولا يزالون أن يعودوا إلى رشدهم وعقولهم، ويبحثوا حثيثاً على سبل التوحد والتلاقي من جديد. عليهم أن يبذلوا جهوداً كبيرة لتحقيق الاتحاد وبناء حصن الأمة القوي والحصين. فليس لهم سقف آخر يجمعهم تحت ظلاله. وإن القوة التي من شأنها أن تؤمّن وحدتهم واتحادهم، وتحتضن الجميع هي القوة المعنوية والروحية لكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وما تعبر عنه هذه الكلمة.

وأختم سطوري هذه بمقولة للعالم والمفكر الكبير محمد إقبال – رحمه الله تعالى – الذي كان شديد الحزن على حال هذه الأمة، وتوفي وهو يعاني من هذا الألم والحزن: "إن سلاح هذا العبد الفقير الذي تحدى العالم أسره هو عبارة عن هاتين الجملتين الصغيرتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قمة الحضارة

كل حضارة تمثِّل الإنسان الذي أقامها، وذلك الإنسان يقدم صورةً عن الوسطية والانسجام بصفات الحضارة المنسوب إليها.

وحضارة الإسلام قمةٌ لم يصل إليها الإنسان إلا مرة واحدة في تاريخه، فالفطرة البشرية قد جُبلَت بعلوم وأسرارٍ وحِكم إلهية، والقلوب مُزِجَت بالعرفان والعلم الحقيقي حتى تطهرت من أهوائها النفسانية؛ فلما تشابه الاستعداد الفطري لأمتنا مع الفيوضات المعنوية في القلوب، ظهرت حضارة عظيمة لا مثيل لها.

من دروس

الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

طريق الحق أدق من الدقة

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٧٥-٨٢)

وقد حذر النبي ﷺ بشدة مما ستتعرض له الأمة في آخر الزمان فقال:

«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة . قيل: ما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي» (رواه ابن داود والطبراني)

كم في الناس من يُظن أنهم من الأولياء وأرباب القلوب، ويُنظر إليهم على أنهم من أهل التصوف وهم في الأصل ليسوا من أهل الصدق في توجههم إلى الحق سبحانه وتعالى. حيث أن قلوبهم ميالة إلى أهل الغفلة، وأنفسهم تهوى وتهفو إلى شنيع أفعالهم. وإنهم إذا ما دعوا إلى ما تهوى إليه أنفسهم ويشبع شهواتهم ورغباتهم سارعوا إلى الإجابة، وإذا ما دعوا إلى الحق استجابوا كرهاً وخشية أن يوصموا بالكفر والفسوق. فمثل هؤلاء ليس لديهم صدق وإخلاص على طريق الحق. إنهم يكتبون بأيديهم ما تمليه عليهم أهواؤهم بغض النظر عن جهلهم، ثم يقولون أنه الحق. فهؤلاء ضلوا عن الهداية وأضلوا غيرهم.

على السائر في طريق الحق الامتثال لكل ما يأمره به الحق والتمسك في سبيل الوصول إلى الله تعالى، وعدم الانخداع بظاهر الأحوال، وعدم الانجرار خلف مكائد النفس، وأقوال الجاهلين، والتحلي بالحذر واليقظة والبصيرة في كل تقلباته. إن طريق الحق أدق من الدقة وأقوم من المستقيم. وإن أجهل الناس من يضيع وقته سدى ولا يعمل على إصلاح خصال نفسه رغم علمه بها ورؤيته لها، ولا يسعى للوصول إلى الحق ﷻ.

محمود سامي رمضان أوغلو، تفسير سورة البقرة، ص، ١٦٥- ١٦٧.

من دروس

الشيخ موسى طوبّاش

العشق الحقيقي

إن الدنيا تتحول في الواقع إلى جنة حقيقية في عيون المحبين الحقيقيين، إذ أن قلوبهم تمتلئ بمحبة الله تعالى بحيث لا ترى ولا تعتبر أي شيءٍ مهما صغر عبثاً. إنهم لا يزالون يحبون، ويحبون، ثم يزيدون فوق الحب حباً حتى لا يجدون الطمأنينة والسكينة إلا في ذكر كلمة الحب. وإذا بلغت المحبة ذروة كمالها فإنهم حينها لا يحبون إلا ما يحبه الله. فلا يحبون من يبغضهم الله ﷻ من المشركين وأعداء الدين، وإنما يبغضونهم لبغض الله تعالى لهم ويتخذونهم أعداءً.

قيل أن المحبة الحقيقية تثبت بثلاثة أمور:

١. تفضيل المحب كلام المحبوب على كلام غيره.

٢. تفضيل المحب صحبة المحبوب على صحبة غيره.

٣. تفضيل المحب إرضاء المحبوب على إرضاء غيره.

وسئل أحد العلماء: من العاشق وما حاله؟

فقال: قليل معاشرة الخلق، كثير الاختلاء بربه. كثير الصمت، دائم التفكير. إذا نظر لا يرى، وإذا نودي لا يسمع، وإذا كلم لا يفهم. لا يحزن إذا أصابته مصيبة، ولا يبالي إذا جاع. رث الهيئة. لا يخشى أحداً غير الله. يناجي ربه في الخلوات والأسحار، ولا ينازع أهل الدنيا في دنياهم.

من ادعى ثلاثة دون ثلاثة فهو ضال ومخدوع:

١. من ادعى تلذذه باتباع ما شرعه الله، ولم يدع حب الدنيا.

٢. من ادعى أن أعماله إنما لمحبة الله، واستحسن تعظيم الناس له.

٣. من ادعى محبة الله، وغفل عن تزكية وتربية نفسه.

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني – قدس سره – عن الحب:

– الزاهدون يأكلون في الجنة، والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا. والمحِبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة.

طعامهم وشرابهم أُنسهم وقربُهم من ربهم عز وجل ونظرهم إليه.

باعوا الدنيا بالآخرة، ثم باعوا الآخرة بربهم عز وجل رب الدنيا والآخرة. الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه، وأرادوه دون غيره. فلما تمَّ البيع والشراء غلب الكرم فرد عليهم الدنيا والآخرة موهبةً، وأمرهم بتناولهما.

فأخذوهما بمجرد الأمر، مع الشِّبع، بل مع التخمة والغنى عنهما. فعلوا ذلك موافقة للقدر، وحسن أدب مع القَدر. قبلوا وأخذوا وهم يقولون:

وإنك لتعلم ما نريد. تعلم أن قد رضينا بك دون غيرك. ورضينا بالجوع والعطش والعُرْي والذل والمهانة، وأن نكون على بابك مطروحين.

لما رضوا بذلك، وقرّروا مع نفوسهم الطمأنينة عليه نظر إليهم نظرَ الرحمة، فأعزّهم بعد ذلهم، وأغناهم بعد فقرهم، ومنحهم وقرَّبهم منه دنيا وآخرة.

هؤلاء قلة القلة. هؤلاء المرشدون الكاملون الذين وصلوا ذروة الكمال.

موسى طوبّاش، مصاحبات آلتون أولوك– ٢، ص، ١٦٤– ١٦٨.

عثمان نوري طوباش

رمضان العمر

يقول الله ﷻ:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥)

الحمد لله الذي زين من جديد أيام عمرنا نحن عباده العجّز الضعفاء بشهر رمضان المبارك الذي تتنزل فيه المغفرة والعفو والرحمات الإلهية. الذي فيه ليلة القدر التي هي خير من سنوات العمر كله، والكنز المعنوي والروحي الذي لا يُقدر بثمن...

فما أسعد المؤمنين الذين عزموا في هذه الأيام المباركة على:

- الاعتناء بصلواتهم، وبذل أقصى جهودهم لأدائها بخشوع.
- قراءة الأوراد بقلب خاشع فياض .
- تهذيب الروح وتطهيرها بالصوم للوصول إلى مرتبة التقوى.
- كسب روحانية الأسحار بالسحور.
- التقرب إلى الله تعالى بالزكاة، والصدقات.
- وبالنتيجة الخروج من هذا الشهر وقد نال المغفرة وتطهر من الذنوب والآثام!...

مهما شكرنا ربنا ﷻ على هذا الشهر الذي تكرم به علينا فلن نوفيه حقه!..يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)

فالشكر وسيلة لطرح البركة في النعم، ودوامها وبقائها. فعلينا عدم إهمال الشكر المتعلق برمضان المبارك سواء القولي أو الفعلي كي تظهر بركة الشكر في هذه النعمة أيضاً، أي نعمة رمضان.

ولهذا علينا أن نظل محافظين على القيم المعنوية التي نكتسبها في الأجواء الفياضة لرمضان المبارك والتي تربي وتزكي الأرواح حتى بعد انتهاء الشهر، ولا نفقدها أبداً. وذلك لأن إضفاءنا لروحانية رمضان على أيام العام كلها سيكون أجمل تعبير عن شكرنا الفعلي لربنا سبحانه وتعالى.

العبودية حتى الرمق الأخير

علينا ألا ننسى بأن حياة الإسلام، والتدين، والعبودية، والزهد، والتقوى ليست مخصوصة بشهر رمضان المبارك، ولا فاصلاً من المراسم والطقوس مؤقتة. وإنما هي قيم مصيرية بغاية الأهمية والتي يجب أن يجعلها المؤمن تاجاً على رأسه طوال حياته.

فالله ﷻ يأمرنا بالعبودية لذاته العلية في كل وقت وزمان، وليس فقط في رمضان. حيث يقول في الآية القرآنية:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)

فالقرار الإلهي بحق الإنسان يتخذ على أساس الأنفاس الأخيرة. ولكي نلفظ الأنفاس الأخيرة ونحن على إيمان سليم لا بد أن يكون قلبنا متقلباً بين "الخوف والرجاء"، أي الخوف من غضب الله ﷻ، والأمل برحمته، مدى الحياة.

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

فلا مناص للإنسان لكي يموت على الإسلام سوى الاستمرار في العبودية لله تعالى دون الوقوع في الغفلة واتباع النفس ولو للحظة واحدة. وقد قدم لنا رسول الله ﷺ نموذجاً منقطع النظير في هذا المجال بتضرعه إلى مولاه ﷻ، قائلاً:

«اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» (السيوطي، الجامع الصغير، ج١، ص، ٥٨)

وبذلك علمنا ﷺ كيف ينبغي أن تكون حالتنا الروحية في العبودية للحق سبحانه وتعالى.

وكما أن الله ﷻ قد أخفى ليلة القدر في طيات أيام السنة، فإنه كذلك أخفى الوقت الذي يمكن أن يتجلى فيه رضاه وغضبه بين ثنايا الزمن. وبذلك أراد لنا أن نحرص في كل لحظة من لحظات حياتنا على القيام بالأعمال الصالحة، واجتناب ارتكاب الذنوب والمعاصي. ولذلك فإن الإسلام ينظم ويضبط كل لحظة من لحظات الحياة. فإتباع تعاليم الدين في أوقات معينة، والتغافل عنها أو اجتزائها بتطبيق بعضها وإهمال البعض الآخر يعرض الإيمان للضعف والنقصان.

وبناء على ذلك ينبغي أن نكون خلال حياتنا حذرين حذراً شديداً من الوقوع في الغفلة ونسيان الخالق سبحانه وتعالى ولو للحظة واحدة. لأن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)

علينا أن نظل محافظين على القيم المعنوية التي نكتسبها في الأجواء الفياضة لرمضان المبارك والتي تربي وتزكي الأرواح حتى بعد انتهاء الشهر، ولا نفقدها أبداً. وذلك لأن إضفاءنا لروحانية رمضان على أيام العام كلها سيكون أجمل تعبير عن شكرنا الفعلي لربنا ﷻ

ولذلك يجب علينا الإبقاء على ارتباطنا بدين الله تعالى حياً ومتجدداً في كل مكان وزمان حتى الأنفاس الأخيرة من حياتنا. وأن نعيش في كل لحظة من لحظات حياتنا بعشق إيماني يزيد يوماً بعد يوم بموجب الدستور القائل:

«من كان يومه كأمسه فهو مغبون».

إن نصائح مولانا جلال الدين الرومي الآتية تُعد أجمل تعبير عن أفق عبودية المحبين والعاشقين للحق سبحانه وتعالى، حيث يقول:

«توضأ وضوءاً لا ينقض، وصل صلاة لا تنتهي أبداً. فالعاشق لا تكفيه خمس صلوات في اليوم، وإنما يريد خمسة آلاف صلاة. إذ هل يريد العاشق الحقيقي انتهاء الوصل؟..».

العبادات تكتمل بأدائها في أوقات محددة. ولكن العبودية دائمة ومستمرة. فالإيمان هو ارتباط القلب الدائم بالحق ﷻ. ولذلك فإن العاشقون للحق ﷻ الذين يعيشون إيمانهم بعشق يجعلون الفيوض والروحانية التي يحصلونها في العبادة مستمرة مع كل نفس يتنفسونه. ولا يغفلون عن الحق ﷻ في أي زمان ومكان. ولأنهم يشعرون بأنهم في الحضرة الإلهية كل آن ولحظة فإن وضوءهم، وصلاتهم، وبالتالي عبوديتهم تكون دائمة ومستمرة.

إن علامة الملذات والشهوات النفسية هي انطفاء نار الرغبة والانجذاب إليها فور تذوقها. وأما الملذات والمتع الروحية؛ فكلما تذوقها العبد كلما ازدادت الرغبة والشوق إليها بشكل أكبر.

ومثال ذلك؛ الصائم الذي يبقى جائعاً طوال ساعات النهار، فإنه عند الإفطار يشبع من طبق صغير من الطعام، وتنطفئ رغبته وشهوته نحو الطعام مهما كان طيباً ولذيذاً. وأما الملذات الروحية فليست كذلك. إذ أن في الملذات الروحية نشوة لا نهاية لها ومن شأنها أن تزيد من رغبة المؤمن إليها إذا ما تذوقها.

فلأن العباد المقربون من الحق ﷻ بدأوا بالإحساس بنفحات ونسائم الملذات الباقية فقد فقدت الملذات والمتع الفانية قيمتها وأهميتها في عيونهم. ولذلك فإنهم بدلاً من استخدام النعم التي تقع بين أيديهم لأنفسهم وإن كانت لهم حاجة إليها يتصدقون بها على المحتاجين لوجه الله تعالى، ويشعرون بلذة أكبر مما لو أنفقوها على أنفسهم.

وقد كان رسول الله ﷺ لا يهدأ له بال ولا يغمض له جفن، ولا يأكل حتى يشبع جياع الأمة، ويفرج كرب مكروبيهم.

وكأن اللذة والمتعة الروحية التي كانت تجلبها له الشفقة والرحمة بالمخلوقات من الخالق سبحانه وتعالى تنسيه جوعه وآلامه.

إن اللذة الروحية للعبادات التي يتم أداؤها بخشوع، أي بقلب موصول بالله تعالى لا تقبل حتى مقارنتها مع الملذات والمتع المادية الفانية.

وأنّ العبادات، والطاعات، والتضحيات والخدمات التي قام بها العاشقون الذين تذوقوا طعم الطمأنينة والسلام المعنوي والروحي لمعيتهم مع الله تعالى، لم تتسبب لهم بأي تعب أو إرهاق في يوم من الأيام، بل على العكس من ذلك؛ فقد بلغوا حالة من النشوة واللذة التي لا نهاية لها. ولهذا فإنهم يتمنون من كل قلبهم أن لا تنتهي حالة الوصل مع الحق سبحانه وتعالى.

يجب علينا الإبقاء على ارتباطنا بدين الله تعالى حياً ومتجدداً في كل مكان وزمان حتى الأنفاس الأخيرة من حياتنا. ينبغي أن نعيش في كل لحظة من لحظات حياتنا بعشق إيماني يزيد يوماً بعد يوم بموجب الدستور النبوي القائل: "من كان يومه كأمسه فهو مغبون". علينا الالتجاء والتضرع إلى ربنا ﷻ.

وكذلك فإن المؤمنون الذين يعرفون قيمة وأهمية رمضان المبارك حق المعرفة، ويصومون أيامه ويحيون لياليه بما يليق به لا يتمنون أبداً أن تنتهي أجواء الرحمة هذه، ولا أن ينقطع تدفق الفيوض الكامنة فيها.

فكما قِيلَ:

«لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان...» (الهيثمي، ٣، ١٤١)

ويصف معلى بن الفضل أحد مظاهر هذه الحقيقة لدى المؤمنين الصالحين بقوله:

«كان السلف الصالح يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم» (قوام السنة، الترغيب والترهيب، ٢، ٣٥٤)

رمضان قلب العام

ينبغي أن نعلم بأن شهر رمضان بمثابة القلب من السنة. وعلينا أن لا ندع مجالاً لتناقص أو نزول مستوى العبودية التي حققناها في هذا الشهر، إذ ينبغي أن نسعى جاهدين على ربط رمضان الذي مضى برمضان المقبل بوجد قلبي متزايد. ولا ريب أن المؤمن الذي يوفق لمثل هذا الأمر سوف يمضي كامل أيام عامه بروحانية ورحمانية رمضان المبارك.

فما الذي ينبغي علينا فعله والتركيز عليه والانتباه إليه ومراعاته حتى تكون السنة كلها بروحانية وفيض رمضان المبارك؟

أولاً؛ نحقق استدامة حقيقة رمضان إذا ما صبغنا كل أوقاتنا بصبر رمضان وزهده، وحفظنا أنفسنا من الطمع، والشره، والجشع، والإسراف، والغضب، والسيئات والمعاصي.

فاستحباب صوم الأيام الستة من شهر شوال التي تعقب عيد الفطر مباشرة هو من جهة وسيلة لاستعادة الجسم دورته ونظامه الطبيعي بالتدريج، ومن جهة أخرى تعليم لمتابعة الروحانية والمحافظة عليها بالنوافل. والأمر ذاته ينطبق على صيام الأيام البيض، وصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع.

فالصوم يُعلم الصبر. والصبر من لوازم المؤمن في كل وقت وأمر، فالصبر لازم للاستمرار في العبادة... ولمقاومة المعاصي، ورغبات وشهوات النفس... والصبر لازم عند نزول المصائب والبلايا، والصبر ضروري للوقاية من زلات القدم، والوقوع في وديان الغفلة عندما تهتاج الرغبات والشهوات النفسانية بفعل توفر المال والثروة... والصبر ضروري في حالة الحرمان لحفظ العقيدة من الاهتزاز الذي قد يسببه الفقر، وكذا للامتناع عن سلوك طرق الحرام، ولتجنب التذمر والاعتراض والشكوى... لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥)

ومن جانب آخر؛ هناك عاملان لهما أثر كبير على الإنسان: الصحبة الصالحة، واللقمة الحلال. فإذا ما التزمنا بهما في شهر رمضان، فنكون بذلك قد حافظنا على استمرار الشعور الرمضاني.

وكما أننا نغلق أفواهنا أمام الطعام والشراب خلال الصيام، فينبغي كذلك إغلاق قلوبنا أمام النفاق، والرياء، والعجب، والكبر، والغرور، والتذمر، والحسد والجشع في كل الأوقات. وإغماض عيوننا عن النظر إلى كل ما حرمه الله تعالى. وسد آذاننا عن الاستماع إلى كافة الأصوات والأقاويل السيئة والمنكرة التي نهانا عنها القرآن والسنة.

وإذا استطعنا أن نضفي يقظة السحور على كل الأسحار، أي أن نعتاد على تزيين الأسحار خلال أيام

العام بالتهجد، وذكر الله، والاستغفار فإننا نكون قد حفظنا فيوض القلب التي تسود في رمضان المبارك طوال العام.

وإذا تعاملنا مع كل ليلة من أيام العام وفقاً لدستور "انظر إلى كل ليلة على أنها ليلة القدر." وأولياناها الاهتمام الذي نوليه في البحث عن ليلة القدر في رمضان المبارك، فإن كل أيام السنة تصطبغ بروحانية رمضان وفيوضه.

وإذا تمكنا من تحويل عزيمة السعي إلى المساجد لأداء صلاة التراويح إلى عشق المداومة على الجماعة طيلة أيام العام، فإننا نكون قد حافظنا على تجدد الأجواء الروحية السائدة خلال رمضان في قلوبنا في سائر لحظات العام بشكل دائم.

تُعد الصدقات وأشكال الإنفاق المختلفة بمثابة باب مفتوح على الدوام للحصول من خلاله على رضا الحق سبحانه وتعالى مدى الحياة. فإذا تمكنا من إظهار الحرص على الوفاء بالزكاة والصدقات ومختلف ألوان الإنفاق الذي نبديه خلال شهر رمضان في سائر الشهور الأخرى؛ وإذا استطعنا التخلص من البخل والطمع، وأقدمنا على الخدمة والتضحية بكرم وجود؛ وإذا تمكنا من تذكر الفقراء والمحرومين واعتبرنا أنفسنا مسؤولين عنهم، وزدنا من الرحمة والشفقة عليهم فإننا نكون قد حافظنا على مناخ الرحمة الرمضانية خلال كل أيام العام.

وكان والدي موسى المحترم يشجع بكل وسيلة محبيه وأقربائه على الإنفاق بكرم وسخاء من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وذلك من أجل نيل رضا الله ﷻ قيقول:

«يا أولادي؛ عيشوا حياتكم بحالة من الزهد، وأنفقوا ما أكرمكم به الله في سبيل الله! ولا تكونن حالة الزهد محصورة فقط بشهر رمضان المبارك! وإنما اصبغوا بها كل مراحل وأيام حياتكم، وأنفقوا ما زاد عن حاجاتكم في سبيل الله تعالى!..واعلموا هذا جيداً، فإنكم حتى لو عشتم في قصر فمع ذلك أنتم مجبورون على العيش بقناعة، ومن أجل ذلك أخرجوا أموالكم، وأملاككم من قلوبكم، وإذا لم تنفقوا الزائد عن حاجتكم في سبيل الله ﷻ فإنكم سوف تصبحون من الجاحدين لنعم الله تعالى عليكم، ولا تنسوا أن عدم الإنفاق إضرار بالنعم، وإن حساب الإضرار بالنعم عسير، ووبال يوم القيامة.».

يقول موسى أفندي رحمه الله:
«يا أولادي؛ عيشوا حياتكم بحالة من الزهد، وأنفقوا ما أكرمكم به الله في سبيل الله ﷻ! ولا تكونن حالة الزهد محصورة فقط بشهر رمضان المبارك! وإنما اصبغوا بها كل مراحل وأيام حياتكم، وأنفقوا ما زاد عن حاجاتكم في سبيل الله تعالى!..»

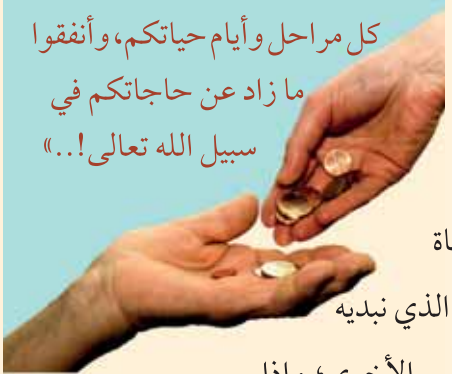

إن الشياطين تُصفد في شهر رمضان المبارك، وتبقى النفس لوحدها العائق أمام العبد. وأما بعد انقضاء شهر رمضان فتُحل أصفاد الشياطين التي تعود إلى محاولة إبعاد العبد عن ربه ﷻ. ولكن إذا استطعنا تجنب الذنوب والمعاصي، والبقاء بحالة من التيقظ والحذر الدائم تجاه دسائس ومكائد النفس والشيطان، فإننا نكون قد حافظنا بذلك على الصفاء والرقة القلبية التي كانت قائمة في رمضان. إذ يقول الله ﷻ في الآية القرآنية:

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦)

والحاصل؛ إن نسبة فلاحنا في إحياء شهر رمضان المبارك بشكل مقبول متوقفة على نسبة فلاحنا في جعل هذه الأمور التي ذكرناها نهجاً ودستوراً لحياتنا.

علامة العمل المقبول

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل»

(مسلم، المسافرين، ٢١٨؛ أحمد، ٦، ٦١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

(الانشراح: ٧-٨)

يأمرنا الله ﷻ في هاتين الآيتين بالمثابرة المستمرة على أعمال الخير، حيث أننا ما إن ننتهي من عمل خير حتى نباشر بغيره دون توقف وتمهل.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن علامة قبول العبادة هي السعي إلى عبادة أخرى بعد الانتهاء من تلك، والسعي للقيام بأعمال الخير واحداً بعد الآخر دون توقف».

وأما علامة عدم قبول العمل الصالح، فهي إتباعه بالمعصية، أي ارتكاب الخطايا والسيئات بعد القيام به. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا...﴾ (النحل: ٩٢)

فينبغي أن نصغي جيداً إلى هذا التحذير الإلهي، وأن نكون بغاية الخوف من عدم قبول أعمالنا الصالحة وذهابها هباءً منثوراً. إن مثل من يعود إلى المعاصي، والغفلة بعد رمضان كمثل من ملأ كيسه ثم تركه دون أن يحكم ربطه. فينتثر ما جمعه فيه على الأرض، ولا ينال من عمله إلا الخسران.

ولذلك يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

«كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل»

فمن أمثلة ضياع ثواب الأعمال الصالحة هي؛ اقتران العبادات بالغرور، والكبر، والعجب، والأنانية، وإدخال حظوظ النفس فيها كأن يقول الرجل: فعلت كذا وكذا.

إذاً يجب الاهتمام بقبول العبادات وأعمال الخير بقدر الاهتمام بإتيانها.

إننا نبذل في شهر رمضان المبارك بشكل عام جهداً أكبر للتقرب إلى ربنا سبحانه وتعالى بالصيام، وصلاة التراويح، وتلاوة القرآن، وبالصدقات، وزكاة الفطر وغير ذلك من أعمال الخير. بينما ينبغي أن يكون السؤال الأهم الذي يتبادر إلى أذهاننا وقلوبنا هو:

«تُرى؛ هل قوبلت الجهود التي بذلناها لإحياء الشهر المبارك بالقبول عند الله ﷻ».

يقدم لنا ميرزا مظهر معياراً في هذا الخصوص بقوله:

«إذا أحيي شهر رمضان بالذكر مع حضور القلب، فإن هذا الحال الجميل سوف يستمر بقية أيام السنة.

وإذا ما حدث تقصير أو تهاون في هذا الشهر، فإن أثره سوف يبدو على مدار العام كله»

أي أن الأجواء المكتظة بأشكال العبادة، ومستوى العبودية الاستثنائي الذي يبلغه العبد خلال شهر رمضان بمثابة البذرة التي يتم زرعها في الأرض. والتي سوف يتبين أثرها وصلاحيتها للنمو من عدمها في الشهور الأخرى.

والحاصل؛ إن حالنا وتوجهنا عقب شهر رمضان المبارك هو أحد العلامات التي تشير إلى قبول عبادات شهر رمضان أو عدم قبولها. فالمعيار الذي

يقول الله ﷻ:
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا...﴾
فينبغي أن نصغي جيداً إلى هذا التحذير الإلهي، وأن نكون بغاية الخوف من عدم قبول أعمالنا الصالحة وذهابها هباءً منثوراً.

يحدد مدى الاستفادة التي حققناها في هذا الشهر الفضيل، هو مدى تمكننا من الحفاظ على حالة العبودية التي كسبناها في هذا الشهر.

وقت المحاسبة

ينبغي علينا بعد انتهاء شهر رمضان المبارك محاسبة أنفسنا، وإلقاء نظرة متفحصة على أحوالنا. ونتساءل:

- لقد رحل رمضان، فما الذي خلفته لنا هذه الأيام المباركة؟
- هل استطعنا أن نجعل رمضان المبارك وسيلة لتلافي أخطائنا وتقصيرنا، ولزيادة حالاتنا الإيجابية، وللارتقاء بمستوى أخلاقنا وسلوكنا؟
- ما هي الخطايا التي تبنا عنها؟ وكم هي العادات السيئة التي تركناها؟
- كم من الأشخاص تسامحنا معهم واعتذرنا منهم؟
- ما مدى مساهمتنا في تحقيق الصلح بين إخواننا؟
- كم من القلوب المنكسرة واسينا؟ وكم أعدنا البسمة للوجوه المظلومة المكروبة؟
- ما مدى استكمالنا لنواقص عباداتنا وقضاءها؟
- كم قدمنا من الخدمات والجهود التي ستكون وسيلة لإنارة ظلمة قبورنا، وتيسير حسابنا في المحشر، ونيلنا السعادة الأبدية؟
- هل تلافينا نواقصنا وتقصيرنا فيما يتعلق بمسؤولياتنا تجاه أسرتنا، وجيراننا، وأقربائنا، ومجتمعنا، وأمتنا، وجميع المخلوقات الأخرى؟

يُعد شهر رمضان المبارك موسم الرحمة الذي تسوده الرحمة الإلهية، وشهر الفيوضات، وخير الأوقات التي تتغلب فيها الروحانية على النفسانية. وهو مدرسة التقوى التي تخضع فيها النفس للتزكية والتربية. لأن عبادة الصيام المفروضة فيه تعلم الإنسان الارتقاء الروحي بتهذيب النفس وكبح جماحها. وهو الذي تمتلئ فيه القلوب بالعشق والإيمان.

- وما هي القرارات التي استطعنا اتخاذها بهذا الخصوص؟
- وإن كنا قد قمنا بعمل خير وإصلاحي؛ فهل بقي محصوراً بشهر رمضان، أم أنه ما يزال مستمراً بعد رحيل هذا الشهر المبارك؟

علينا أن نعلم بأن الرحمة الإلهية تصيب الذين استطاعوا أن يحافظوا على الخصال الحسنة المكتسبة في شهر رمضان المبارك لتهيمن على سائر أيام وسنوات حياتهم. الرحمة الإلهية تتجلى في كل لحظة وآن، والأمر المهم للعبد هو البحث عن الوسائل التي من شأنها إيصاله إلى تلك الرحمة، واستغلال الفرص المتاحة بالشكل الأمثل قدر الإمكان. وإنه لخسران وضياع كبير أن يحرص العبد على إحياء أيام وليال معينة مثل شهر رمضان المبارك، ثم يتصرف بتهاون وإهمال في الأيام الأخرى.

علينا بذل أقصى جهودنا ليكون الحماس الذي نبديه في شهر رمضان الفضيل لأداء العبادات والقيام بالأعمال الصالحة، وإعطاء الصدقات شاملاً لسنوات العمر كلها، كي نستيقظ في الأنفاس الأخيرة في صباح عيد أبدي.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده الصالحين السعداء الذين يخرجون من رمضان المبارك وقد نالوا شهادة العيد الحقيقي. وأن يوفقنا لأن نحيا كل أيامنا وسنواتنا بفيض وروحانية رمضان الفضيل. وأن يجعل لنا جميعاً الدار الآخرة عيد سعادة وسرور أبدي. آمين!..

أدركوا يا أمة محمد

إسماعيل لطفي جاكان

الأمة هي كيان أو بناء اجتماعي يقوم على رابطة الإيمان التي تسود بين المتدينين أو الإخوة في الدين، ويشكل وجود النبي النقطة المحورية فيه. وأمة محمد مفهوم واسع ذو شقين، فهو يعبر بشكل خاص عن مجتمع من الناس آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام (أمة الإجابة)، ويدل بشكل عام على المجتمع المخاطب بتبليغ الإسلام (أمة الدعوة). ونحن عندما نقول الأمة أو أمه محمد إنما نقصد بذلك أمة الإجابة، أي المسلمين. وإن أمة محمد بهذا المعنى أو المفهوم إنما هي بناء أو واقع اجتماعي متشكل ومؤسس بالسنة المحمدية.

وكما ورد في القرآن الكريم فإنه تُطلق تسمية الأمة أيضاً على الجماعات والمجموعات والتكتلات التي تتمتع بخصائص معينة، وتقوم بنشاطات وأعمال وفعاليات معينة.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

وللأسباب والمبررات ذاتها يُستخدم المصطلح ذاته بحق أمة محمد (ضمن نطاق أمة الإجابة) من بين الأمم الأخرى أيضاً:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

وعلى ذلك فإن أمة محمد:

أ. أمة تحمل وثيقة شرفية في الميدان المعنوي بمقتضى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ (آل عمران: ١١٠)

ب. أمة لها صفة خاصة أساسية بموجب الآية:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ (البقرة: ١٤٣)

ج. أمة خرجت بناء على دعاء وتضرع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨)

إن كون المرء من هكذا أمة، أي من أمة محمد عليه الصلاة والسلام لهو دولة وعظمة كما عبر عن ذلك

المرحوم سليمان جلبي (süleyman çelebi). حيث يشير جلبي في المولد الذي يحتفل خلاله بمعراج النبي عليه الصلاة والسلام إلى قول الصحابة الكرام:

«يكفينا دولة أننا أمتك، يكفينا عزة خدمتك».

ولا شك أن الانتماء إلى أمة النبي المبعوث إلى العالمين جميعاً والموصوف بصفات رفيعة فريدة مثل "داعياً إلى الله"، و "رحمة للعالمين"، و "إنك لعلى خلق عظيم"، و "قدوة حسنة" لهو أعظم دولة وأعظم سعادة.

الأمة المرحومة

إلى صفات الخيرية والأفضلية التي تتمتع بها أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما بينتها الآيات المذكورة آنفاً، فإن لها صفة أخرى تعلمناها من نبينا عليه الصلاة والسلام، وهي أنها: أمة مرحومة... إنها الأمة التي تُعد مظهر اللطف، والإحسان، والتكريم الإلهي...

يروي الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» (انظر: أبو داوود، الفتن، ٧؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٤؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٤، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٨)

إن هذا الحديث الشريف يتناول تقييم الأمة الخيرة " ككل" ضمن إطار الأمم الأخرى، ومن ثم فإنه لا يعني أن لا أحد من هذه الأمة سوف يتعرض للعذاب – إن استحقه ولم يعف عنه – يوم القيامة.

فالمقصود من هذا الحديث هو:

أن الأمم السابقة سوف تعامل في الآخرة وفق مبدأ العقاب المناسب للذنب، وأما هذه الأمة فسوف تعامل على أساس الرحمة، والعفو، والإحسان والمغفرة. أي أن الله تعالى سوف يعامل الأمم السابقة على أساس العدالة، ويعامل هذه الأمة على أساس الرحمة.

لا شك أنه يجب على المسلمين أمام هذه البشارة الواردة في الحديث النبوي الشريف وبشكل خاص أمام هذا البيان والتحذير المتمثل بـ «عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» أن يكونوا واعين، ومتنبهين، ومتسلحين بالعلم والمعرفة في مسألة واجبات الانتماء للأمة، وأن يبذلوا غاية جهدهم في تنفيذ مهامهم والقيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهم. وإلا فلن يكون هناك مفر من الانزلاق إلى الحالة المزرية والباعثة على الخجل التي أشار إليها المرحوم محمد عاكف بقوله:

«استيقظي أيتها الأمة المرحومة استيقظي، واستحي من هذا الاسم الذي سميت به».

كان الأولون من شعبنا وأجدادنا إذا ما أحسوا بخطر داهم، أو بسوء قد يحل بهم يطلبون العون والمدد بندائهم: «أدركونا يا أمة محمد»، فلم يكونوا ينادون على اسم أحد من أجدادهم أو أفراد عائلاتهم، ولا يقدموا أي فئة اجتماعية أبداً. إننا أمام التحديات الجسام التي نواجهها اليوم، وعلاقات الجوار الفاترة واللامبالية والسلبية، وجدران التعصب التي أصبحت تفصل بيننا ندرك قيمة هذه التربية بشكل أكبر، ونعرف كم هي مفهوم جامع وذو مغزى عظيم، وكيف أنه يعبر عن وعي عميق. وإن ما يسبب الألم العميق ويثير القلق البالغ هو رؤية الحالة ذاتها في العلاقات السائدة بين الشعوب الإسلامية، وهرولتهم إلى العدو المشترك لهم طلباً للعون والمساعدة، وانتظار الشفقة والرحمة منهم بدل الالتفات إلى بعضهم والتعاون فيما بينهم.

أود أن أقدم لأولئك الذين يتشاركون في مثل الأوساط السلبية مقتطفاً يذكر بحقيقة تاريخية آملاً أن يكون تحذيراً ونصيحة لهم.

في معرض حديثه وبيانه للأحداث الدرامية الأليمة التي جرت في حرب البلقان والتي تسبب بها أنصار التمييز العنصري، وخاصة الكارثة الإنسانية التي حصلت في ألبانيا أسس المرحوم عاكف آراءه وأفكاره المشيرة إلى الخطأ الكارثي والمؤلم للذين انجروا خلف الأفكار القومية والشعوبية بدل مفهوم الأمة الجامع على رواية:

"إذا قالت نزار: يا نزار، وقالت أهل اليمن: يا قحطان، نزل الصبر، ورفع النصر، وسلط عليهم الحديد"، وصرخ بأعلى صوته قائلاً:

ألم يكن الإسلام هو الأمة... فما هذه القومية إذاً!

ألا ليتكم تمسكتم بتلك الأممية.

بالله عليكم ما هذه "الألبانية"؟

أخبروني، هل لها مكان في الشريعة؟

تقديم القوم كفر ليس إلا..

أم أن للعرب فضل على الترك، وللبعض فضل على الشركس أو على الكرد؟

أخبروني بالله عليكم أين هذا التفضيل؟

أم هل صار في الإسلام "عنصرية"؟

فالتفرقة العنصرية أكبر عدو لروح النبي،

لعن الله على من أدخلها في الإسلام!

أنبئوني هل ترون هذا الجدل والنزاع صواباً وقد أخبرتم بعاقبته الوخيمة قبل ألف سنة ويزيد؟

لقد حل الصباح يا أيتها الأمة المرحومة، فأفيقي!

ألا تكفيك أصوات الأذان، أم تريدين قرع الأجراس؟

استيقظي من سباتك وافتحي عينيك فلن تخلد لا العربية ولا التركية!

اصغي إلى الكلام الإلهي الصادر عن النبي الكريم.

فلا يعيش الترك دون العرب. ومن يقول غير ذلك فليس سوى مجنون!

فالعرب للترك، والترك للعرب العين اليمنى، واليد اليمنى!

فتكاتفوا... وإلا فإن النتيجة ليست سوى الخسران المبين:

فلا تبقى الخلافة، ولا يبقى الدين!

الحضارة! يعرف المتربص أنها قبلكم بكثير؛

إنه يريد أولاً التقسيم والتفتيت، ثم الالتقام والابتلاع

مع تمنياتي باليقظة القريبة للقلوب التي سوف تستجيب لصرخات ونداءات "أدركونا يا أمة محمد!" التي يتردد صداها في محيطنا خاصة وفي العالم عامة، وتزول الحسرات وتنتهي الآلام...

قوة إيمان الصحابة ﷺ في اتباع الرسول ﷺ

لما صار حبُّ الله ورسوله متربِّعًا على عرش قلوب الصحابة الكرام، تحوَّل المجتمع الجاهلي إلى مجتمع فاضل يربِّي رجالًا أفذاذًا، يقتدي بهم البشر في الرحمة والفضيلة والإنسانية، وصار الأإخوة في الدين كحال اليدَين تغسل إحداهما الأخرى، وغابت عن مجتمع الصحابة مظاهرُ الترف والرخاء والنهم والاستهلاك الفائض، لأنهم لم ينسوا يومًا أنهم إلى الفناء صائرون، فعاشوا حياتهم مدركين أن النفس التي بين جنبيهم إلى القبر يوما مآلها.

جعفر دورموش

نفحة من سورة الكهف

إن إحدى القصص الثلاثة المذكورة في سورة الكهف قصة لقاء موسى مع الخضر عليهما السلام، ورحلته المشهورة برفقته. وقد حصل هذا اللقاء المشار إليه عقب رحلة موسى عليه السلام وخادمه التي كانت منطوية على حكمة بالغة.

يقول الحق سبحانه وتعالى عن الخضر عليه السلام:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥)

وتجري أحداث قصة لقاء الخضر مع موسى عليه السلام في الآيات القرآنية كما يلي:

في البدء قال موسى عليه السلام:

﴿...هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦)

فأجابه الخضر عليه السلام بقوله:

﴿...إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف: ٦٧-٦٨)

ورغم محاولة موسى عليه السلام تطمينه وكسب ثقته بقوله له:

﴿...سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف: ٦٩)

إلا أن الخضر عليه السلام لم يتردد في قول:

﴿... فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٧٠)

وحسب ما ورد في الآية ٦٥ إلى الآية ٨٢ من سورة الكهف فإن الخضر عليه السلام قام خلال هذه الرحلة بخرق وثقب السفينة التي ركبوها، وقتل الغلام الذي صادفوه في طريقهم، ورمم جداراً يوشك على الانهيار في القرية التي رفض أهلها استضافتهم وإطعامهم. وقد تلقى موسى عليه السلام عقب سؤاله عن الفعل الأول والثاني الجواب الآتي:

﴿...أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .....

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟﴾ (الكهف: ٧٢، ٧٥)

إلا أن الخضر عليه السلام قال عقب السؤال الثالث:

﴿...هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨)

ثم أعطاه بعض المعلومات والحكم حول كل فعل. وقد ورد ما بينه الخضر عليه السلام في الآيات وفق الآتي:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ

غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ (الكهف: ٧٩-٨٢)

جرى في هذه الآيات المباركة التطرق بالإضافة للإجابة على سؤال موسى عليه السلام إلى بعض الحكم، ولم يبد موسى عليه السلام بدوره اعتراضاً على ما تم بيانه.

إذاً؛ فالأمور التي تبدو في الظاهر ضارة ومنكرة ليست كذلك في الحقيقة. فما ينبغي للمؤمن المسارعة إلى الاعتراض في مسألة صوبها من هو أعلم وأكبر منه، أو سكت عنها. فعليه جعل التسليم مبدأ وأساساً يسير عليه واضعاً نصب عينيه احتمالية وجود حكم ومقاصد في أحكام الله تعالى وتدابيره والتي لم يتمكن من الاطلاع عليها ومعرفتها بعد.

وهناك أمر آخر وهو أن الأسباب الباطنية قد لا تتوافق مع الظاهر بشكل دائم. إلا أن هذا لا يعني ورود احتمالية تضاد الحقيقة مع الشريعة. لأن الشريعة حكم الحق ﷻ. فعندما بين الخضر عليه السلام المأمور بالباطن حقيقة الأمر لم يبال باعتراض سيدنا موسى عليه السلام ولم ير أحقيته، وإنما تمسك أو اتبع الحقيقة الكامنة فيما وراء الحوادث.

نتبين مما سلف أنه يجب علينا بعد اتخاذ كل التدابير والاحتياطات المطلوبة اللجوء إلى ميناء التوكل والتسليم والرضا في الأمور التي تعاكس رغباتنا وتفضي إلى غير النتيجة المتوخاة منها. وأبرز مثال على ذلك مسألة قتل الغلاء التي تبدو مشكلة ومستعصية على الفهم والتفسير. وتُعد أوضح مثال ونموذج يعلم الإنسان أن يقول في أصعب الظروف والأوقات "هو المعطي وهو الآخذ".

وبذلك فإننا ندرك من جديد ضرورة التوقف أحياناً لالتقاط أنفاسنا وأخذ قسط من الراحة بين تقلبات الحياة وحوادثها. ضرورة التوقف ومراجعة الذات. وترسيخ الإيمان والاعتقاد بأن ما من شيء يحدث في الكون، وما من ورقة شجرة تتحرك دون إذن الله. والحرص على إبقاء سيف الاعتراض في غمده بإحكام خشية استلاله في غير محله. وحتى إخفائه عند الاقتضاء لكي يتألق المرء كمؤمن وموحد... لأنه المدبر لكل أمر بحكمة، وفي آن ولحظة بشأن، وهو الخالق المبدع. وما يقع على عاتقنا هو القيام بإعطاء كل عمل حقه.

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٥)

ويبشر النبي ﷺ المؤمن فيقول:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له» (مسلم، الزهد، ٦٤)

يتبين مما تقدم أن إصابة بسيطة وصغيرة قد تكون أحياناً حائلاً دون حدوث خسارة كبيرة. فموت شاب في مقتبل العمر قد يحفظ أهله وأقرباءه من الكفر والطغيان الذي يُعد الخسران الأبدي. وقدر الأبوين الصالحين عند الله تعالى قد يحفظ مستقبل أجيال المستقبل.

إني أؤمن وأجزم أننا عندما نخر ساجدين أمام كلام الله تعالى ونحن متجملين بهذه الأفكار وأشباهها أن تتسع صدور لتتلقى المصاعب والمصائب التي نتعرض لها في حياتنا بكل رحابة وسهولة ويسر.

من هو الأعمى؟

الأستاذ:نور الدين يلدز

إن الإبصار أبعد من الرؤية المعهودة المعروفة. إذ يُعد من الإجحاف بحق بعض العيون الثاقبة المساواة بين الرؤية لعدة مترات وبين الرؤية لما وراء الأمور والأشياء، ثم إطلاق تسمية "الإبصار" على كلتيهما. فتشارك من لا يرى سوى الميدان المحدود بمصالحه ومنافعه مع من ينظر بنظرة إنسانية شاملة ب"العين" لا يستوجب حتماً تشاركهم في "الإبصار" والرؤية ذاتها. فلا يمكن أبداً المساواة بين من يشاهد الشيء الموضوع أمامه فحسب، وبين من يستطيع رؤية حتى ما يُراد إخفاءه عنه.

يمكن تقسيم الناس إلى فئتين من حيث زاوية النظر:

فئة لا تشاهد إلا بعضو العين فقط، وفئة أخرى تستطيع النظر بالقلب إلى جانب العين. فصاحب العين التي تعجز عن اختراق أكثر الحجب شفافية لا يرى إلا القليل، وليست له نظرة ثاقبة تمكنه من استشفاف النتائج المستقبلية مما يراه. وأما أصحاب العيوب التي لا تتأثر بالحجب والسواتر فيرون الكثير. فهم يبصرون ما لهم، وما للآخرين.

لو أن الذين يفقدون ملكة الرؤية والإبصار في الأوقات العصيبة التي تحدق بهم فيها المصائب والملمات كقطع الليل المظلم يكتفون بعدم الرؤية فحسب لما كانوا مصدر إزعاج. إلا أنهم عندما لم يبصروا، وفي الوقت ذاته منعوا غيرهم من الإبصار فقد أصيبوا بعمى مزدوج. إنهم كما أضاعوا أنفسهم، أضاعوا أبناءهم وأزواجهم أيضاً. وتجرأوا على اتهام من أراد النظر إلى ما هو أبعد من حيز الرؤيا، والتبصر بعواقب الأمور، تجرأوا على اتهامهم بالخطأ والضلال. وأما عماهم المبصر فقد تحول إلى خداع وتضليل لمن ينظرون من الخارج. فنظراتهم أدت مهمة المصيدة.

وإنهم حتى يدركوا حقيقة أنهم ينظرون ولكن لا يبصرون يكونوا قد وصلوا إلى نقطة اللاعودة.

لا ريب أن إلحاق العميان المبصرين الضرر بأنفسهم وبمن يصحبهم ويتعبهم من الأمور التي سوف يسألهم الله ﷻ عنها ويحاسبهم عليها. ومن العميان المبصرين الذين ينظرون إلى أبنائهم الأصحاء ولا يرونهم كنعمة ربانية، والذين ينظرون إلى أزواجهم ولا يعتبرونهم رفاق الجنة، والذين لا يشعرون أن البيت الذي يغلقون بابه على أنفسهم ويعيشون فيه بأمان نعمة كافية لهذه الدنيا الفانية.

تُرى أي وثيقة يمكن أن يثبتها بشأن ما يرونه أولئك الذين ينظرون إلى الآيات في المصحف ولا يبصرون قدرة الله تعالى، رغم أنهم قادرون على قراءة القرآن ومعرفة تفسيره واتباعه؟ كيف يمكن لمن يشعر بالقلق من غده حتى عندما ينظر إلى القرآن أن يدعي رؤيته الآية القرآنية " أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ " بعد أن لم يستطع رؤيتها؟ هل يمكن أن يكون صاحب عين وبصر من يرى ظلام مستقبل المؤمنين، ويتوهم أنه لن ينقشع، ولن يبزغ فجر الصباح مرة أخرى؟ هل يمكن أن يكون مبصراً حتى وإن كان يرى: من لا يشاهد الله وعظمته وهو ينظر إلى حجر عادي قبل الكعبة، وإلى الصحاري القاحلة قبل الأشجار والمروج الخضراء، وإلى الأموات قبل الأحياء؟

يجب على المرء حتى يكون مبصراً أن يتحلى بالإيمان ويرى الشروط التي تجعل الإنسان من المؤمنين. فالجميع يرى الكعبة كحجارة وجدران، ولكن المبصرون هم من يرون همة وحماس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في هذه الجدران. المبصرون هم من يجدون مخرجاً حتى في الطرق والممرات المسدودة. فالإبصار عملية تليق بهم. إن علامة امتلاك العين المبصرة هي رؤية الماء في الصنبور الذي لا يتدفق منه الماء، ورؤية أمارات الطعام في الوعاء المخدوش قعره، ورؤية ما يُعتقد استحالة رؤيته. فالإبصار ليس رؤية تلال الأشواك في وسط الطريق، وإنما الإبصار هو رؤية ما تحت التلال، وما وراءها.

من لا يرى ما يمكن للمؤمن رؤيته إلى جانب ما يراه الجميع فهو أعمى. المبصر من يرى الغد، ويرى بشارة الرب مالك الغد، ويرى الآمال المخفية. والأعمى من لا يرى ذلك. والأعمى الحقيقي من لا يبصر عين نفسه. فإذا لم يكن من ينظر إلى مرآة القرآن والسنة، ولا يرى عينه في تلك المرآة، ثم لا يدرك أن وعد الله لعباده المؤمنين حق أعمى، فمن هو الأعمى إذاً؟

إنه ظالم من يعجز عن الرؤية، ويقف حائلاً أمام رؤية الآخرين. فمن يجبر زوجه وأبناءه الذين يتحمل مسؤوليتهم على نظرته الضيقة فإنه يعاديهم بعماه. وهذا ظلم. ولسوف يُسأل من يفعل هذا عن ظلمه.

إن العجز عن رؤية مكانة الصبر والثبات عمى. والعجز عن رؤية واجبات العبودية، ورؤية العبادات عمى. وعدم النظر إلى أحداث ومجريات التاريخ المليئة بالعبر على أنها دروس وعظات قد يكون سبباً للعمى بالنسبة للإنسان المؤمن. مهما نظر المحروم من النظرة الثاقبة والبصيرة فإنه أعمى مبصر. فإذا كان النظر شيئاً والرؤية والإبصار شيءٌ آخر فإن العميان الحقيقيين هم الذين ينظرون إلى آيات الله تعالى ويعجزون عن رؤية عظمته، وحكمه في خلقه.

كم من إنسان مبصر يمسي قلبه غليظًا لغفلته، ويعمى عن رؤية الحكم والحقائق لأنه يعيش حياته بجهل وغباء وحماقة، وفي هؤلاء يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج: ٤٦]

متأثراً بسورة الطور

جبير بن مطعم رضي الله عنه

مصطفى أريش

جاء جبير بن مطعم يفاوض في اسرى بدر لما لأبيه من مكانة عند النبي ﷺ حيث أن أباه مطعم بن عدي أجار النبي ﷺ حين قدم من الطائف. فحفظ النبي ﷺ ذلك الجميل فقال في أسرى بدر لو كان المطعم حيا وكلمني فيهم لتركتهم له فجاء ابنه جبير للنبي ﷺ يفاوضه في أسرى بدر فانتهى إلى النبي ﷺ وهو يصلي المغرب يؤم الناس في مسجده ويقرأ بسورة الطور حتى إذا بلغ قول الله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور:٣٥-٣٧)

كاد قلبه يطير حين سمعها ووقر الإيمان في قلبه. فعاش ﷺ بقية حياته وهو يتقلب في مشاعر الندم على حرمانه وبعده مدة طويلة عن نور الإسلام.

وقد روى هذا الصحابي الجليل ما يقرب من ستين حديثاً عن النبي ﷺ. ونجد مشاعر الحسرة والندامة في هذه الروايات. ونورد فيما يلي بعضاً من هذه الروايات: فعن جبير بن مطعم ﷺ قال:

قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى، فقال:

«نضر الله امرأ سمع مقالتي، فبلغها، فرب حامل فقه، غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم، تحيط من ورائهم » (ابن ماجه، المناسك، ٧٦/ ٣٠٥٦)

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «لا يدخل الجنة قاطع» أي قاطع رحم. (البخاري، الأدب ١١؛ مسلم، البر ١٨- ١٩)

عن جبير بن مطعم ﷺ: أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ، فقال:

«أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً» (البخاري، الجهاد، ٢٤، الخمس، ١٩)

عن جبير بن مطعم ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من الليل والنهار» (الترمذي، الحج، ٤٢)

عن جبير بن مطعم ﷺ أنه قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله! جُهِدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ:

«ويحك أتدري ما تقول؟» وسبح النبي ﷺ، فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال:

«ويحك إنه لا يُستَشفَع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك. ويحك أتدري ما الله، إن عرشه على سماواته لهكذا. وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب» (أبو داوود، السنة، ١٩)

عن جبير بن مطعم ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لي خمس أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً» (رواه البخاري ومسلم)

كان جبير ﷺ من ضمن البعثة التي ذهبت للقاء العصاة الذين خرجوا على عثمان ﷺ واتجهوا إلى المدينة المنورة، وذلك لمناقشتهم وثنيهم عن عصيانهم. ولما استشهد سيدنا عثمان ﷺ حضر جبير ﷺ دفنه متحدياً كافة المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها. ويرد في رواية أنه هو من أمّ الناس في صلاة الجنازة. وانتقل إلى رحمة الله تعالى في المدينة المنورة عام ٥٨ هجري، ٦٧٨ ميلادي. رضي الله عنه وأرضاه. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً إخلاص جبير بن مطعم ﷺ ورأيه السديد. وأن يجعلنا مظهراً لشفاعته. آمين.

تربية روحانية

ينبغي للمسلم أن يعلم أن الإسلام ليس طقوسًا تُؤدَّى في شهر رمضان أو أيام معينة فحسب، بل هو حياة قائمة على التقوى ما دام الإنسان في هذه الدنيا. إن شهر رمضان مدرسة للتقوى، أما العيد فهو شهادة معنوية بإتمام هذا الشهر الفضيل كما ينبغي، والعيد يومٌ مبارك يشعر فيه المسلم بتجلٍ من تجليات يوم الوصال السعيد، ذلك اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله تعالى وقد فاز في امتحان التقوى، والعيد الحقيقي إنما هو رضا الله سبحانه وتعالى عنا، فعلينا أن نغتنم أيام رمضان الفضيلة، ونُسعِد فيها اليتامى والفقراء والمحتاجين والمساكين، حتى ننال نفحة من تجليات رحمة الله تعالى.

أوراق التقويم

علي بويوك جابار

هل يمكن أن يكون للبحث عن السكينة والطمأنينة والسعادة منفرداً أهمية بينما تسير الحياة التي نعيشها وسط توازنات متعددة ومختلفة ومتشعبة؟

إن أخلاق المتع والشهوات التي أنتجها العصر الحديث تدفع بالإنسان في كثير من الأحيان إلى حالة من الضيق والسأم حتى من نفسه. وفي اللحظة التي نفكر فيها بطريقة لتلبية احتياجاتنا يشتعل فتيل الصراعات وتبدأ الكوارث.

وإن فهم الأحداث يتعقد يوماً بعد يوم ويصبح أكثر مشقة وصعوبة.

في الوقت الذي لا يخفى فيه على أحد أهمية المعرفة والعلم يحاول أغلب الناس حصر أنفسهم ضمن دائرة ضيقة ومحدودة من الحكمة المزعومة ومواجهة الحياة من تلك الدائرة. ويواجه الإنسان يوماً بعد يوم صعوبة بالغة في الوصول إلى السلام الداخلي والطمأنينة بسبب حصر سبب وغاية الخلق بالطعام، والشراب، والملذات والشهوات البدنية، والسلطة والرياسة. ويكاد لا يخطر على بال أحد الوقوف مثل إبراهيم عليه السلام والنظر إلى السماء التي فوق رؤوسنا!

وفي الوقت الذي تنتظر فيه حكم الخلق هناك يلهو الإنسان ويتقلب في الملذات وهو لا يدري ماذا يفعل بسبب اضطراب الحياة وتراكم الالتزامات، ثم يقرأ عن محن وآلام الإيمان ويمضي وكأنه يقرأ حكايات وأساطير الإنسان القديم.

لا أريد العودة إلى الوراء كثيراً. وإنما أريد فقط العودة إلى سنوات الدراسة وكتابة بعض المصطلحات والمفاهيم التي كنتم تسمعون بها خلالها، وتوجيه أسئلة إليكم حولها. ما هي المراحل التي مر بها عقل الإنسان على مدى ستة آلاف عام حتى وصل إلى اليوم؟.

يجري الحديث عن وجود الله تعالى في القرآن الكريم مترافقاً مع هذه الحكم: دليل الوجود، الدليل الكوني، دليل الغاية والنظام، دليل التجربة الدينية، دليل الأخلاق.

وإن الخطباء في المساجد، والمعلمين في المدارس، والشيوخ في طرق التزكية والتربية يعلمون جيداً أنهم مكلفون ببيان وشرح هذه الأنوار.

لقد كان إبراهيم عليه السلام ينطلق من دليل الغاية والنظام ليتوصل إلى أسرار الإيمان، فيا ترى بأي دليل ننطلق في طريقنا نحن؟ ألا يسألون الرجل ما دليلك؟ وأين بوصلتك؟

إن قناديل طريق التصوف الذكر!

فإذا لم يتم التوقف والاطلاع على أسرار الأذكار التي تُردد كل يوم، وأسرار الأدعية التي تُكرر كل يوم فلن يتقدم الإنسان إلى الأمام قيد أنملة.

ومن ثم فإنه لا يليق بالدرويش الغفلة عن الذكر وطريق تربية النفس يمر عبر إنضاجها على موقده!

ويلفت القرآن الكريم الأنظار إلى هذه النقطة حينما يقول:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢)

إننا اليوم بحاجة ماسة إلى العلم والمعرفة.

فمنهج تدريس وبيان المعلومات الدينية في العالم الإسلامي لا يتطابق ويتوافق مع خطوات الانتقال من التربية إلى التعليم. وإن شعبنا يواجه صعوبة ومشقة في تجاوز المعيقات والمصاعب المادية والمعنوية والتغلب عليها لأن حل الألغاز والرموز الأساسية للمحيط الاجتماعي الذي نعيش فيه من وجهة النظر الأخلاقية يحتاج إلى وقت ونفس طويل.

وكذلك من الضروري النظر إلى قراءة الكتب ومطالعتها على أنها جزء من الذكر، بل وشرط لازم.

أما إذا كنا نريد تعلم العلوم الدينية بقراءتها من أوراق التقويم، أو كنا لا نلقي بالاً بتعلمها فإن رياح الحياة سوف تقذف بنا إلى أبعد مما نحن فيه، وسوف نعاني من صعوبات ومشقات جمة في الوصول إلى عالم الحكمة.

اختصر العبد حكمة الهمة بقوله:

انهض أيها الغافل! انهض من سجن الغفلة؛

ألا تعلم أن العمر قد مضى؟

هل أخذت علماً عن سر الوحدة

هل تعلم أن طائر روحك قد طار؟

حاجة الناس
إلى نفحات رحمته ﷺ

لقد نشر نبيُّنا المحبةَ في أمته وكان يهتم بأمرها، ويعين المحتاجين والأرامل والثكالى، فربَّى بذلك مجتمعًا من الصحابة أحبوه أكثر من أنفسهم وأموالهم.

ولقد استطاع نبينا ﷺ برحمته وحكمته أن يصلح المجتمع الجاهلي الفاسد، ويغيِّره إلى مجتمع السكنية والسعادة، فكذلك نحن اليوم نحتاج إلى نفحات رحمته تلك، كي ننقذ البشرية، ونوصلها إلى بر الطمأنينة والسعادة.

والمجتمع الذي أدرك حياة النبي ﷺ شكلًا وروحًا كما ينبغي قد بنى حضارة من الفضائل في كل صفحة من صفحات تاريخه المشرق المملوء بالعز والشرف، والمؤمنون الذين ينتسبون إلى هذا المجتمع إنما هم الأخيار الذين نالوا السعادة في الدارين، أيًا كان الزمان الذي عاشوا فيه.

والسعادة والطمأنينة في الحياة المحفوفة بالمفاجآت والأخطاء مرتبطتان بمقدار الإقتداء بسنته عليه الصلاة والسلام.

تزكية النفس

دوران أكيزير

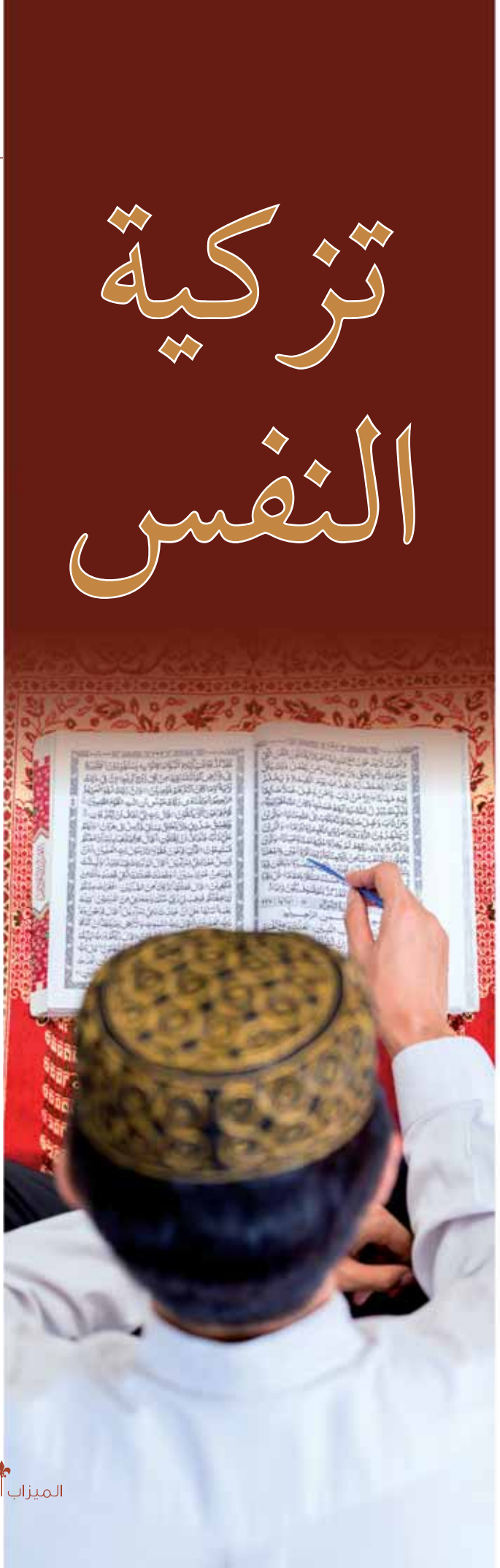

الإنسان هو الكائن الوحيد في الدنيا الذي يمتلك ملكة العقل، والتمييز/ الوعي. ونتيجة لهذه الخاصية فإنه على عكس الكائنات الأخرى قادر على إدراك وفهم الحقائق الإلهية بملكة العقل والتمييز. وبعبارة أخرى إنه كائن مخاطب بالكلام الإلهي. وقد سمى صاحب هذا الخطاب وهو الله تعالى، سمى خطابه باسم "الوحي". وقد قسم العلماء الوحي إلى قسمين: المتلو، وغير المتلو. واتفق العلماء جميعاً تقريباً بشأن مسألة قدرة المخاطبين على فهم معاني القرآن الكريم بشكل واضح وصريح. ولهذا فقد نصح علماؤنا القدامى لتعلم اللغة العربية وإتقانها بأفضل صورة بجملة من العلوم وفي مقدمتها علم الصرف والنحو، ووضعوا أسس علم البلاغة الذي يشتمل على علوم البيان، والبديع، والمعاني لفهم جانب القرآن الأدبي، وأسلوبه التعبيري بالشكل الأمثل، وألفوا في هذا المجال مئات الكتب والتصانيف. وكذلك خلفوا وراءهم علم الميراث أيضاً ليكون صدقة جارية للأجيال اللاحقة. وأجمل مثال على هذا هو علوم اللغة العربية والتي كانت تدرس في المدارس كجزء من التقليد التعليمي لأجدادنا. ولم يتوقف العلماء عند ذلك، وإنما صنفوا الكثير من كتب التفسير لفهم معاني القرآن الكريم بشكل أفضل. وكان الهدف من هذه الكتب والتصانيف هو التعمق في معاني القرآن الكريم والغوص في دقائقه، ومن ثم تحقيق فائدة أكبر للناس من هذا الكتاب المعجزة.

إن الأمر الأساسي الذي يجب التوقف عليه هنا هو أنه من غير الكافي تناول القرآن الكريم والتواصل معه على أساس أو مستوى المعنى فحسب. فالوحي في الأصل أداة قولية ملقاة على قلب رسول الله، ومتدفقة من فمه المبارك الشريف دون أدنى خلل أو فساد أو

تحريف. أي أن الوحي لم ينزل ككتاب. فأمر رسول الله ﷺ بكتابة آيات القرآن الكريم إنما كان فقط بهدف حفظ الوحي، وحمايته من التحريف الذي تعرضت له الكتب السماوية السابقة. عندما كان ينزل القرآن أحياناً على شكل آيات، وأحياناً أخرى على شكل سور كان هدف رسول الله ﷺ ثم هدف الصحابة الكرام من بعده هو تطبيق تلك الآيات في الواقع العملي، وتوجيه سلوكهم وتصرفهم حسب الوجهة الإلهية. ولم يكن الهدف جعله أداة للنقاشات والجدالات الفكرية والثقافية. إذ أن فهم آياته لم يكن بالأمر الصعب في عصر السعادة. فالقرآن بطبيعة الحال كان ينزل بلغة مفهومة من قبلهم، وكان القرآن الكريم بذاته يبين أنه إنما ينزل بلسان عربي مبين. فالأمر الأساسي هنا كان إلى جانب المعجزة اللفظية انعكاس المعنى الذي أرادت الآيات القرآنية بيانه في عالم الشخص الداخلي بتسليم وإيمان تام، وتأسيس إطار حياة بالشكل الذي هدف إليه القرآن. وفي الواقع كان هذا بالضبط ما حصل في تلك الفترة. ولهذا كان المشركون يتخذون موقفاً عدائياً تجاه نزول القرآن، وتجاه رسالة النبي ﷺ. وذلك لأن هذ النظام – أي الإسلام – كان ينظم كل شيء بالشكل الذي يبينه الله تعالى، ويشمل كل ميدان وبأبعاده المادية والمعنوية على حد سواء. وعلى هذا الأساس فإنه كان صورة لصراع وحيد: وهي الحرب الأزلي بين الحق والباطل والذي سوف يبقى مستمراً حتى قيام الساعة.

وكان هنا أمام الإنسان طريقان لهما حدود معينة، واتجاه محدد. وهذا الطريقان هما : طريق الحق الذي وصل بواسطة الأنبياء والرسل من أبينا آدم عليه السلام إلى النبي ﷺ ومنه إلينا، والذي سوف يمتد إلى الأجيال التي سوف تأتي من بعدنا إلى يوم القيامة؛ وفي المقابل طريق الباطل الذي يعارض في أساسه حاكمية الله تعالى، وينكر حكم ربه ويخرج عليه ويعانده، ويعمل على إحلال نظام مادي محله، وتشكلت قيادة هذا الطريق في كل عصر من عناصر مختلفة – ويستخدم القرآن للدلالة على هذه العناصر بشكل عام تسمية الشيطان، والشياطين، ويشير إلى أن هؤلاء يمكن أن يكونوا من الإنس والجن على حد سواء –.

ويقع على عاتق الإنسان الذي يختار طريق الحق أمر أو واجب واحد، وهو تنظيم وضبط حياته على ضوء القرآن والسنة. وعليه أن يكون وهو يقوم بذلك في حالة يقظة ووعي مستمر. وأهم طريقة أو منهج لتحصيل هذا الوعي هو المحافظة على علاقة حية مع الوحي بشكل دائم. وترسيخ وعكس معانيه في العالم الداخلي، والشعور والإحساس بعمق المعاني التي تعبر عنها الآيات. ولكن السؤال المهم هو: كيف يكون ذلك؟

ويقع على عاتق الإنسان الذي يختار طريق الحق أمر أو واجب واحد، وهو تنظيم وضبط حياته على ضوء القرآن والسنة. وعليه أن يكون وهو يقوم بذلك في حالة يقظة ووعي مستمر. وأهم طريقة أو منهج لتحصيل هذا الوعي هو المحافظة على علاقة حية مع الوحي بشكل دائم.

الجواب يكمن مجدداً في الكتاب، والسنة التي تُعد التطبيق العلمي لذلك الكتاب والنموذج الحي والمشخص لالتصاق اللحم بالعظم. ومثال ذلك: إذا ما نظرنا إلى القرآن الكريم نظرة عامة نجد أن هناك مئات الآيات التي تأمر بالتفكر والتدبر باستخدام أفعال مختلفة (توكل، تفكر، تذكر، تدبر، ذكر، تفقه). ويتم التطرق في هذه الآيات بشكل عام إلى حقيقة ما، ثم تنتهي الآية بعبارة ك "أفلا تتفكرون، أفلا تعقلون". وهذه الأفعال جميعها تقريباً تأتي بصيغة المضارع المستمر، وهذا الأسلوب يدل على ضرورة أو وجوب أن يكون التفكر عملية مستمرة. والتفكر يقود إلى الانتقاد والملامة. وهذا هو ما يسميه أهل التصوف

بـ"النفس اللوامة". فاختبار الإنسان لنفسه، ومراجعة ذاته وحياته هي نتيجة لهذه العملية. وعندما تصبح هذه الميزة حالة مستمرة في الإنسان فإنها تتحول إلى صفة من صفات الشخص. وقد شرف الله تعالى بالنفس التي تقوم بهذه العملية ورفع من شأنها، حيث أقسم بها في القرآن الكريم:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١- ٢)

النفس التي تدرك أخطاءها وسيئاتها وتلوم ذاتها.

فعندما يستمر اللوم والنقد فإن الروح تبدأ بالوصول إلى الصفاء، أي تبدأ التصفية والتطهر من سائر العوالق والكدورات، ومختلف الخطايا والشرور. وتضع قدماً راسخة وثابتة على الطريق السليم للوصول إلى الخلاص والنجاة. فتزكية النفس المعروفة في التصوف ترسم للإنسان حياة تحتوي على تجربة روحية بالغة الروعة. فيكون على وشك طرق باب الفلاح. فكما أن ضوء الشمس يمزق ظلمة الليل ويشق له طريقاً خلالها، كذلك فإن الإنسان بالتزكية يبدأ بشق طريق له داخل ظلمات فجور النفس. وهذا هو الشيء الذي تتحدث عنه الآية القرآنية:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)

عندما تتوحد التزكية والتصفية يبدأ التكامل مادياً ومعنوياً. وإن علامات التكامل بالظهور والتجلي على شكل الجدية في الحياة والبعد عن الإهمال والكسل، وأداء مختلف العبادات دون الشعور بثقلها وعبئها. فمثل هذا الإنسان المتكامل ما إن يقرأ الأمر بالإنفاق في الآية القرآنية حتى يسرع إلى الإنفاق دون تفكير. ويسارع إلى تنفيذ توصية التهجد وقيام الليل الواردة في الأحاديث النبوية دون أدنى تردد. إلا أن مركز الفجور الموجود داخل النفس في حالة نشاط مستمر. ولكن كون أن الإنسان المزكي لنفسه قد أضعف هذا المركز فإنه قد أصبح متحكماً بنفسه ومسيطراً عليها. وعندما يتقدم إلى الإمام على هذا الطريق يبدأ العدو أيضاً بالتعاظم. فالشياطين تقوى وتشتد رويداً رويداً. ثم بعد ذلك يزيد من ترقي النفس وينتقل من مرتبة اللوامة إلى مرتبة الملهمة. والملهمة هي النفس التي تلهم صاحبها الصواب أو الخطأ. فالإنسان هنا في هذه المرتبة عندما يواجه الحوادث يبدأ بتقييم المسائل بصفة أو ميزة يُلهم بها في عالمه الداخلي.

> تزكية النفس المعروفة في التصوف ترسم للإنسان حياة تحتوي على تجربة روحية بالغة الروعة. فيكون على وشك طرق باب الفلاح. فكما أن ضوء الشمس يمزق ظلمة الليل ويشق له طريقاً خلالها، كذلك فإن الإنسان بالتزكية يبدأ بشق طريق له داخل ظلمات فجور النفس.

يمكن القول بعبارة وجيزة:

"يبدأ بالنظر إلى الدنيا بعين الإسلام، ويتخلى عن النظر بعين الدنيا إلى الإسلام".

فأشكال فهم الحياة واستيعابها أي شكل قراءة الحياة قد صار من حيث قال الله تعالى أبصر. وإن الشيء المطلوب لدوام هذه الحالة هي مرة أخرى التزكية. إذ كما أن الظلمات موجودة في العالم الخارجي، فإنها كذلك تستمر بوجودها في النفس أيضاً.

عندما يستمر الإنسان بالتزكية فإنه يصل إلى مقام المطمئنة. ويصبح طريق التحول إلى الإنسان الكامل أكثر مشقة وصعوبة. ولا ينبغي هنا التوهم والاستفهام بالقول: هل يمكن أن تتحول المناهج والطرق التي يتم اللجوء إليها في عملية تزكية النفس مثل الذكر وغيره إلى حالة اعتيادية لدى الشخص؟ ومن ثم هل يمكن أن تصبح التزكية مجرد واقعة أو عملية عادية بسيطة؟ إن الجواب على مثل هذه التساؤلات هو "لا". لأن جهاد النفس كما ورد في الأحاديث النبوية هو "جهاد

كبير". وإن الجهاد سوف يستمر إلى نهاية الحياة، وإن الشياطين سوف تغير من تكتيكاتها ومكائدها، وتلجأ إلى أساليب وطرق مختلفة حسب أحوالنا. فالإنسان في هذه المرحلة سوف يواجه اختبارات وابتلاءات أشد وتتركز حول العالم الداخلي وتكون أكثر تشابكاً وإبهاماً وتعمقاً مثل: المباهاة والافتخار بالعبادة، واستصغار الآخرين، والعجب؛ وذلك بدلاً من الابتلاءات التي كان يواجهها في مراحله الأولى مثل: الشهوة، والطمع، وحب أموال الدنيا. وأحسن مثال على هذا هو حالة أبي ذر ﷺ الذي سخر من بلال الحبشي ﷺ بسبب أمه. إلا أن أبا ذر ﷺ سرعان ما أدرك خطأه فيما بعد واعتذر من بلال ﷺ وطلب منه العفو والمسامحة، فقبل بلال اعتذاره وعفا عنه وسامحه. فالذي دفع أبا ذر ﷺ إلى العودة عن خطأه هو مداومته على عملية تزكية نفسه، وبصيرته التي حملته على لوم ونقد ذاته ومن ثم الرجوع عن الخطأ والقبول بالحق.

وإذا ما داوم الإنسان على التزكية بعد ذلك فإنه يبلغ مقام الراضية، وفي هذا المقام يبحث الإنسان عن التجلي الإلهي في كل ما يأتيه من الله تعالى. فهو يصبح راضياً بكل ما يأتيه ويصيبه من ربه سبحانه وتعالى وهو يقول: "قهرك جميل، ولطف جميل". فعلاقته مع ربه تكون أكثر عمقاً وقوة.

وبعد ذلك يأتي مقام المرضية حيث يصعد الإنسان على الدرجة الأخيرة في السلم المتجه إلى مقام الإنسان الكامل. فالمرضية هي النفس التي رُضي عنها. وينعكس الإسلام في حياة هذا الإنسان بمعناه وشكله التام. ويصبح الإنسان مثلاً ونموذجاً بكل أحواله وسلوكه. ويصبح الله تعالى كما في الحديث النبوي عينه التي يبصر بها، وسمعه التي يسمع بها (انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨). وذلك كما كان الصحابة الكرام. فهذا المجتمع المبارك مثل النجوم المتلألئة في كبد السماء، ويصبح كل واحد منهم قدوة ونموذجاً يُحتذى، وبأي منهم اقتدى المرء قاده إلى الهداية والرشد.

القرآن يحدثك عنك!..

كن عبد قلب، وانحن بعبودية، واصغ: لم يقول لك الدهر؟..

واعلم أن كل بلاء كفارة؛ فليكن البلاء لك دواء!..

هل الطريق ما ترقبه العيون؟ وتريد أفكارك الوصل!

إن إقرارك الأول ب"البلاء" لك مقياس، وتوازن وميزان!..

اعثر على جوهرك الخاص في آلامك، وأبصر السماء والأرض خلال مسيرك!

واعلم أن المحشر في حملك الخاص، والروح ما هي إلا أمانة بين جنبيك!

لا تسأل لم هذا حالي؟ فهي منه، وهي على ما يرام!

فأبصر النعمة، وقل الحق؛ فالعالمان لك!..

غص في بحر الحكمة هذا؛ واعجن خميرة التوحيد!

واجهد لإحياء النفس، فكفى بالموت برهاناً لك!

كن كما أنت، ولا تكن غير ذلك؛ لقد سرى العشق في القصر البلوري!

اقترب من هذا الشوق بالمعرفة؛ فالقرآن يحدثك عنك!

رفعت أراز

سويداء القلب

أدهم جبَجي أوغلو

كنا في الحلقات التي كتبناها إلى الآن قد تناولنا الآراء المتعلقة بـ "نقطة السويداء" لكل من السادة الإمام الرباني (وفاة ١٠٣٤/ ١٦٢٤)، وإبراهيم حقي الأرضرومي (وفاة ١١٩٤/ ١٧٨٠). وأردنا من هذا التنويع في الأفكار والآراء وتناول نقطة السويداء بهذا التوسع الوصول إلى النقاط المشتركة لأطياف مختلفة من أهل التصوف حول هذه المسألة، وتحقيق وحدة التفسير والمعنى على شكل اصطلاحي، أي تكوين إجماع حول المعنى.

إن نقطة السويداء التي قدمت حول ماهيتها ودلالاتها معلومات على شكل مقتطفات مبعثرة وغير مترابطة قد حافظت بشكل عام على الغموض والمجاهيل والإشكالات المحيطة بها. ولكن الذي يبدو حتى الآن هو أنه يمكن تقييم نقطة السويداء بخطوطها العريضة على أنها باب بداية الإنسان مفتوح على الله تعالى ويقع بين المادة والمعنى؛ أو المكان المعنوي/ الميتافيزيقي الذي ظهرت فيه المعرفة والمشاهدة.

لقد قدم كل صوفي جملة من التفسيرات بالاعتماد على الكشفيات في غالب الأحوال وإن كان بنسب متفاوتة فيما بينهم، وأسهموا في تحقيق غنى معرفي وتفسيري حول هذه المسألة.

ومن جملة هؤلاء الشيخ عبد الكريم الجيلي (وفاة ٨٣٢/ ١٤٢٨)، حيث قدم هذا الشيخ إسهاماً وبقدر معين حول هذه المسألة في موضوع الإنسان الكامل.

ماهي نقطة السويداء وفق رأي عبد الكريم الجيلي؟

أ) إن نقطة السويداء حسب رأيه هي الوحدة الحقيقية قبل كل شيء، أي أنها مكان الظهور الأول لهذه الكثرة التي نراها. وبعبارة أخرى إن نقطة السويداء هي أول باب مفتوح على عالم الكثرة الذي نراه، أو مكان فقدان الكثرة بالتحول/ الانقلاب إلى الوحدة.

وفي الحقيقة كنا عند بياننا لمعاني القلب اللغوية في بداية مقالاتنا التي تدور حول هذه المسألة قد ذكرنا أن أحد هذه المعاني هو "المقلب/ القلّاب". وبناء على ذلك يمكن أن نعرف نقطة السويداء على أنها: "مُقلّب/ محول الكثرة إلى الوحدة".

كان أول صوفي قد أشار إلى أن نقطة السويداء "باب" هو الحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩/ ٩٢٢) الذي عاش قبل الجيلي بأربعة قرون تقريباً.

ولا بد أنه عندما أشار إلى دلالة الدخول/ الخروج الديناميكي للباب والقلب إنما اعتمد على الآية القرآنية:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠)

إن تقمص الباب مظاهر لطائف الروح من خلال خاصية (بالجمع) انفتاحه إلى الداخل في بناء القلب، إنما يعبر عن انفتاح نقطة السويداء على الله/ الحق. وهذا نكتة (مدخل صدق). وإن انفتاح الإنسان إلى الخلق بانفتاحه إلى الخارج عن طريق أعضائه الحسية دلالة على (مخرج صدق).

ب) إن نقطة السويداء حسب رأي الجيلي هي المكان الذي تجلت فيه الذات. فالنقطة حسب تعريف الجيلي تعبر عن الوحدة المفتوحة على الذات. فنقطة السويداء وفق الجيلي هي المكان الذي جمعت فيه الكثرة، والتقت فيه الأضداد.

وكذلك يرى ابن العربي أن نقطة السويداء (كما يراها الجيلي) بسبب انفتاحها على الذات مكان أبعد من العقل، مكان يقع فيما وراء إحداثيات الزمان والمكان حيث يصاب فيه العقل بالدهشة، ويقع في الظلمة والحيرة.

إن هذه النقطة التي تعد بمثابة مركز الدائرة هي الإنسان الكامل من حيث احتوائها وجمعها كل الأضداد، والذي هو خليفة الله تعالى على وجه الأرض. ويُطلق على ذلك في المصطلح الصوفي تسمية "جامع الأضداد".

ج) حسب الجيلي فإنه مع تحرك النقطة يحدث أو يظهر خط. ويسمى ذلك ب "التعين الثاني".

وإن التعيّن هنا من مراتب الظهور. ومن ثم فإنه لا يعني الشيء المادي الذي يمكن رؤيته بعين الإنسان. فهو حكمي، اعتباري. وإن النقطة في هذه الحالة تعتبر أو تشكل المرتبة الثالثة بعد الغيب، والتعيّن الأول.

وإذا أردنا التوضيح أكثر فيمكن القول أنه يأتي في المرتبة الرابعة بعد النقطة التي هي بمثابة التعين "عالم المثال" الذي يسميه علماء الفيزياء الفلكية "الكون الرياضي"، وفي المرتبة الخامسة يأتي "عالم المشاهدة" المادي هذا والذي نراه بالعين.

أي النقطة تأتي تماماً في الوسط وتبدو في مكانة مركزية:

١- الغيب المطلق
٢- التعين الأول
٣- التعين الثاني: النقطة
٤- عالم المثال
٥- عالم الشهادة.

كما يبدو مما تقدم فإن النقطة تشير إلى مركز الدائرة بشكل حكمي واعتباري، وتشكل الوسط. أي أن النقطة بالشكل ذاته تحتل المركز عينه وجودياً.

د) إن شأنه شأن المتصوفة الآخرين يربط نقطة السويداء (سويداء القلب) بالعلم والمشاهدة. وإن كلاً من الوجودي والشهودي (العلم/ الوجود/ الرؤية بالعلم/ المشاهدة/ العرفان) يقع على الخط ذاته.

فالجيلي يسمي الأول بالوسعة العلمية، ويصف ويعرف هذا الجانب من القلب من خلال نقطة السويداء بعبارة مختصرة هي "معرفة الله". لأنه ليس هناك كائن في الوجود يعقل كمالات الله وآثاره ويعرف ما يستحقه كما ينبغي إلا القلب.

ويطلق الجيلي على الثاني تسمية وسعة المشاهدة، ويوضح ذلك بقوله: "وهو الكشف الإلهي الذي يطلع القلب به على محاسن جمال الله تعالى". حيث يشاهد القلب بهذا الاطلاع أسماء الله وصفاته ويتذوق لذة

هذه المشاهدة. والمشاهدة بهذه الحالة هي رؤية الحق سبحانه في الأشياء.

إذا ما أمعنا النظر فيما سبق نجد أن الجيلي يؤكد في الوظيفة الأولى للقلب على تحقق العلم/ الوجود، وأما في الثانية فيؤكد على تحقق المشاهدة. أي يمكن القول أن الشهود في معادلة "لا تحدث المشاهدة إذا لم يحدث العلم" يُنظر إليها كنقطة نهائية. فقد قال إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف: ٨١). أي شهدنا الواقعة التي عايشناها. "المعايشة ورؤية ما عايشه المرء، أي هذه الواقعة التي تمكننا نتيجة لمعايشتنا وعلمنا من مشاهدتها، ورؤيتها وقراءتها..." ثم أليست أعظم نعمة في الجنة هي مشاهدة/ رؤية الله تعالى؟ وأليس الله هو الذي توصلنا إليه بعلم اليقين ثم بعين اليقين... وأليس نتيجة التحقق التام لهذين الأمرين هو الحق اليقين؟

وباختصار إن تقسيم بنية القلب أو هيكلته إلى الوجودي والشهودي إنما هو كائن من خلال نقطة السويداء.

إلا أننا اعتباراً من بداية سلسلة مقالاتنا رأينا أن بنية ودلالة سويداء القلب في المعنى الاصطلاحي مترادفة مع الكثير من المفاهيم. ولا شك أن تناول نقطة السويداء بالشرح والبيان من هذا الجانب سوف يجعلها أكثر وضوحاً وقابلية للفهم.

هـ) إن الدخول أو الولوج إلى سويداء القلب إنما يمكن من خلال اختراق الغيب/ اختراق الميتافيزيقيا. ومن دخل إلى نقطة السويداء يكون قد دخل الغيب. وهذا الغيب المفتوح على الله تعالى في نقطة السويداء من خلال العماء يعبر عن المرور إلى ما وراء العقل. قال الجيلي: عندما تصرف النظر بكليتك عن موجوديتك، فإنك حينها في نفسك في عماء عنك... ألا ترى أن الحق سبحانه وتعالى "عينك" وهويتك. إلا أنك (لعدم غوصك وصعودك إلى الغيب) قد تغفل عن الاتصاف بالحقيقة وعن ما هو أنت أحق به!".

إذا أردنا بيان هذه العبارات بشكل مختصر فيمكن القول: إن الغوص والضياع بالغيب في سويداء القلب يدل على أن الإنسان سوف يبلغ إلى الوصل إلى الله تعالى.

فالعبد الذي يدرك أن الخشوع في الصلاة والذكر إنما يعبر عن الوصل إلى الله تعالى فإنه يخشع بكليته ويبث عبوديته في كل ميدان من ميادين حياته من حيث الزمان والمكان.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١- ٢)

إحياء القلوب

ثمة أناس صاروا من الماضي مع أنهم يحيون معنا، وثمة أناس عاشوا قبل عصور لكن أنفاسَهم العطِرة التي كانت تُحيي القلوب ما زالت نابضة بالحياة، يقول مولانا جلال الدين الرومي الذي ما زال ذِكره حيًّا في هذا الزمان:

«استعمل عقلك، واستمع إلى نصائح الأولياء بعقلٍ واعٍ، استمعْ كي تتخلص من الخوف والحزن، وتصل إلى اليقين والراحة المعنوية. إنَّ كلماتِ أولياء الله كنهر ماؤه عذب فرات، فحين تسنح لك الفرصة، اشرب من هذا الماء حتى الارتواء، لعلَّ الأزهار المعنوية تتفتح في قلبك».

مِن وصايا أولياء اللّٰه

الشيخ موسى طوبّاش رحمه اللّٰه

(١٩١٨م-١٩٩٩م)

تنعكس روحانية المؤمن وسريرته على سلوكه وعلانيته، وتصير تصرفاته انعكاسًا لأحواله القلبية، وتصبح فضائله مرآة لسرائره.

ومن هذه الفضائل التي هي عماد أحواله:

دوام التواضع والتزام النفس به.

إدراك قيمة الزمن ومعرفة كنز الوقت، وتقدير جواهر الأنفاس، حتى لا نسرف في نَفَس واحد منها.

محبة عباد الله جميعًا، فلا هجران، ولا نزاع معهم.

تقديم النصح للناس يسيرًا لطيفًا، ومخاطبة الناس على قدر ما تستوعبه عقولهم، وتدركه أفهامهم، وتفقهه قلوبهم.

الستر على عيوب الناس لإصلاحها، والمداراة على خطاياهم ليدركوا فرصة النصيحة والتوبة قبل الفضيحة.

تحرِّي الحلال واجتناب الحرام في كل قول وعمل ومطعم ومشرب.

استعظام مقدار الذنب مهما كان صغيرًا، فهو شأن المؤمن، وعدم احتقار الخطايا، فهذا شأن المنافق، فمَنْ استصغر الذنب كأنه استهزأ بالرب.

لنزين الأوقات بالطاعات، والأسحار بالصلوات، والأذكار بالدعوات، لننال رضا الله ببركة العبادات.

وليكن ديدننا تقديم الخدمة إلى كل المحيطين بنا، والدينا وأسرتنا، وذوي السن وأهلينا، وكل ذي حاجة وفاقة.

لِنبتعد قدر الإمكان عن صحبة أهل الدنيا، وَلنُكثِر من صحبة الصالحين ومجالس المتقين.

ولنكن شديدي الحرص في أسواقنا، ونتحرى الدقة في أمور معاملاتنا، وبيعنا وشرائنا، فلا نكن من المطففين، ولا ممَّنْ يبخسون الناس أشياءهم، فهذه المعاملات قد تضيِّع العبادات، وتأكل الحسنات.

وإياك والغفلة عن الذكر، فذلك مصدر الأخطار والخطايا، وينبوع الحزن الذي يكدِّر صفو الحياة، فمَنْ كان في معية ربه بالذكر المعنوي، تهابه الشهوات وزخرفها الدنيوي ويحيا كريم النفس مطمئن الخاطر، يقطر قلبه على الناس رحمة، وعلى كل المخلوقات شفقة ورأفة، ويحيا دومًا متدثرًا في عباءة المحبة التي يلف بها كل ما تقع عليه عيناه من كون الله تعالى.

ولتجعل نُصْبَ عينيك هذا الدستور النبوي والصوفي في الخدمة:

يقول رسول الله ﷺ:

«سيد القوم خادمهم» (الديلمي، مسند، جـ ٢، ٣٢٤)

فالخدمة ليست فقط تكليفًا؛ إنما سمو وتشريف، فإنك لا تبتغي وجه الناس بخدمتهم، إنما تبتغي وجه الله عزَّ وجل، فأنت في الحقيقة لا تخدم الناس إنما تتعبد لرب الناس، فأفضل الأعمال عند الله إدخال السرور على المؤمن.

د. دُراك بوصماز

يحضر الضيف ورزقه معه

ويبقى لأهل الدار أجره وثوابه

يقول النبي ﷺ:

"إن لزوجك عليك حقاً، **وَلِزَوْرِكَ عليك حقاً**، ولجسدك عليك حقاً" (مسلم، الصيام، ١٨٢)

يتبين من الحديث النبوي الشريف المتقدم وبشكل واضح أن للضيف حق على صاحب البيت. وهذا الحق يتمثل باستقبال صاحب الدار للضيف القادم، واستضافته في بيته. فاستقبال الضيف واستضافته ليس بلطف وإحسان ومكرمة، وإنما حق للضيف مترتب على عاتق صاحب الدار. وعلى ذلك فإن مستضيف الضيف لا يُعد متفضلاً عليه، وإنما منفذاً لالتزام تجاهه، ومعطياً إياه لحق مترتب في ذمته.

يُعد استقبال الضيف واستضافته وإكرامه سنة أبينا إبراهيم عليه السلام، وسنة نبينا محمد ﷺ من بعده. فقد كان النبي ﷺ يولي أهمية كبيرة لاستقبال الضيف وإكرامه، ويعتني به عناية خاصة وفائقة.

إن لكل شيء زكاة من جنسه، وزكاة الدار هي استقبال واستضافة الضيف فيها. فقد ورد في رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "لكل شيء زكاة، وزكاة الدار بيت الضيافة". (انظر، الهندي، كنز العمال، ١٥/ ٣٩٠) من المعروف أنه بجانب البيوت التي لا تزال قائمة في الوقت الحالي في منطقة الأناضول توجد غرف مستقلة لاستقبال الضيوف وإضافتهم فيها.

إن الضيف إنما هو لطف، وإكرام من ربنا سبحانه وتعالى لصاحب الدار. فعلى صاحب الدار أن ينظر إلى الضيف على أنه نعمة عظيمة ورحمة لداره. إذ ليس بإمكان الجميع أن يكون مظهراً لهذه النعمة والرحمة، فالله تعالى إنما يهبها لمن يحبهم من عباده. فقد قال النبي ﷺ:

"إذا أراد الله بقوم خيراً أهدى إليهم هدية". قالوا: يا رسول الله، وما تلك الهدية؟ قال رسول الله ﷺ: "الضيف، ينزل برزقه ويرتحل، وقد غفر الله لأهل المنزل". (العجلوني، كشف الخفاء، ١، ٨٠؛ النبهاني، الفتح الكبير، ١، ٧٧)

وجاء في رواية أن النبي ﷺ قال:

"إذا دخل الضيف على القوم دخل برزقه، وإذا خرج، خرج بمغفرة ذنوبهم". (العجلوني، السابق، ١، ٨٠)

هناك أمران ملفتان في الحديث النوي الشريف، وهما:

أما الأمر الأول فهو اعتبار الضيف كهدية لصاحب الدار. فالضيف في عرفنا الديني ليس بحملٍ على صاحب البيت، وإنما هدية مقدمة إليه من ربه وإكرام له.

وأما الأمر الثاني فهو أن الضيف يأتي ورزقه معه، وعندما يذهب فإنه يذهب وقد غُفر لأهل الدار ذنوبهم.

يتناول الشاعر والمتصوف الكبير فريد الدين العطار هذه الأمور المبينة في الحديث النبوي في كتابه "جواهر نامه" فيقول:

"أيها الأخ! أكرم الضيف وأحسن إليه، فإن الضيف نعمة وعطية من عطايا الله تعالى. والضيف يجلب رزقه معه. ثم يذهب ويأخذ ذنوب صاحب الدار معه.

يا بني! فإن كنت صاحب مروءة وشهامة، وعقل وإدراك فاهتم بضيفك، وأكرم ضيافته. افتح له الباب حتى وإن كان كافراً".

"أيها الأخ! أعز الضيف يعزك الله تعالى.

فالله سبحانه وتعالى يفتح أبواب رحمته على أهل الإيمان الذين يكرمون الضيف.

ومن لا يحب الضيف يؤذي الله ورسوله.

ومن يخدم الضيف يرتفع درجات عند الله ﷻ.

ومن يستقبل الضيف بوجه مبتسم يتلقى من الله تعالى ألطافاً لا حد لها.

ويا صاحب الدار ابتعد عن التكلف حتى لا تشعر بثقل الضيف".

يُعتبر الضيف في ثقافتنا وأعرافنا ضيف الله تعالى، وقد قيل في الضيف:

"يأتي الضيف ورزقه معه"."الضيف أولى من كل شيء"."صاحب الدار خادم الضيف".

يبدو الضيف في الظاهر كحملٍ وثقل على صاحب الدار إلا أنه في الحقيقة ليس ثقلاً وإنما رحمة وبركة. إذ أن الضيف يأتي ويجلب رزقه معه، ولذا فإن الله تعالى يطرح البركة في رزق صاحب الدار، ويزيده، والأكثر من ذلك أن الله ﷻ يغفر لأهل ذنوبهم.

ويُقال أيضاً حسب ما هو منتشر في ثقافتنا:

"إن دعاء الضيف مستجاب". وهذه المقولة مأخوذة من حديث نبوي شريف، وهو:

"ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم" (أبو داود، الوتر، ٢٩)

إن إكرام الضيف، والقيام بخدمته، واحترامه يُعد من أعمال الخير في ديننا الحنيف. ولهذا فإن من يستقبل الضيف ويضيفه في بيته يُعد من أهل الخير. وأما من لا يقبل الضيف ويأبى ضيافته فلا خير فيه. فقد قال النبي ﷺ: "لا خير فيمن لا يضيف". (أحمد، المسند، ٤، ١٥٥)

وعبر المرحوم نجيب فاضل عن ذلك بقوله:

الضيف سقف من البركة، فلا خير في رجل لا يقبل الضيف.

إلى جانب هذا الحكم العام في ديننا فإن هناك أموراً يُوصى بالاستعجال بها. وأحد هذه الأمور هو إكرام الضيف. حيث يُوصى إذا ما حل ضيف على بيت الإسراع في إكرامه وضيافته وعدم التأخر عنه.

كرم الضيافة لدى أجدادنا

كانت إحدى المزايا الحسنة لأجدادنا الذين وضعوا أنفسهم لقرون طويلة في خدمة الإسلام ورفع رايته هي كرم الضيافة، والقيام بخدمة الضيوف القادمين إليهم وضيافتهم دون تمييز بين لغة، أو عرق، أو دين. فكان أجدادنا يولون عناية خاصة لاستقبال الضيف وضيافته. رغم أن الإمكانات في ذلك الزمن كانت محدودة وشحيحة؛ فلم يكن هناك ماء متدفق من الصنابير، ولا كهرباء، ولا غاز لطهي الطعام، ولا ثلاجات، ولا آلات لغسل الثياب، ولا أفران كهربائية، وإنما كان كل شيء يتم إعداده وتجهيزه بجهد الإنسان وطاقته. ولأن وسائل النقل ذات المحركات لم تكن متوفرة، أو غير منتشرة على نطاق واسع فإن السفر والتنقل كان يعتمد على الحيوانات مثل البغال، والخيل والحمير، فإن الضيف كان يأتي إما على ظهر حصان أو حمار، ومن ثم فإن إطعام هذه الحيوانات وسقايتها، والاعتناء بها كان من مهمة صاحب الدار المضيف أيضاً. ولم يكن في المدن الصغيرة أماكن عامة مخصصة لنزول المسافرين مثل الفنادق وغيرها، بل كان يعتبر ذلك من الأمور المعيبة. فكأن الضيف كان يُنتظر على أحر من الجمر، وإذا ما حضر فإنه كان يُضاف بأجمل صورة. ونجد أبهى وأجمل نماذج ذلك في "رحلة ابن بطوطة". فقد عاش ابن بطوطة بين عام ١٣٠٤ و ١٣٦٩، وقام برحلة طويلة في الكثير من الدول والبلدان، وكان من ضمن هذه البلدان التي زارها وجال فيها بلاد الأناضول. وقد أسهب ابن بطوطة في المدح والثناء على كرم وحسن الضيافة لدى الشعب التركي. وكانت الفترة التي زار فيها الأناضول تشهد نهاية السلطنة السلجوقية وبداية صعود العثمانيين. وكانت الأناضول فيها الكثير من الإمارات، كما كان ينتشر فيها مراكز أصحاب المهن والصنعة أو ما يعرف بالأخية حيث يتولى واحد إدارة المكان ويسمى بالأخي. فيذكر ابن بطوطة كيف كان يستقبله الأمراء والمسؤولون في هذه المراكز أثناء رحلته وتجواله، ويثني كثيراً على حسن ضيافتهم وكرمهم. فمثلاً يتحدث عن نزوله في زاوية أحد الأخية في بولو، ويقول:

"وأتى الأخي بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك، فلله درّهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشدّ إيثارهم، وأعظم شفقتهم على الغريب، وألطفهم بالوارد، وأحبّهم فيه وأجملهم احتفالاً بأمره! فليس قدوم الانسان الغريب عليهم إلّا كقدومه على أحبّ أهله إليه!".

أجل؛ إن كل ما ذكر ليس بحكاية وقصة، بل حقيقة. فيا لها من خصال جميلة كنا نمتلكها كشعب. لم يكن كلام الشاعر عن عبث حين قال:

كنا يوماً قوماً وأي قوم؛ لقد قدمنا إلى الدنيا وقد تعلمنا ما القومية.